

باور أحمد

ملاحح الأيدولوجيا الإقتصادية



# ملاح الأيدولوجيا الإقتصادية

باور أحمد

اسم الكتاب: ملامح الأيديولوجيا الإقتصادية

اسم المؤلف: باور أحمد

الناشر: مكتبة كازي- دهوك/ اقليم كردستان العراق

الطبعة الأولى: ٢٠٢١م

الترقيم الدولي: ISBN: 978-9922-20-976-0

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدى مكتبة كازي في العراق بحسب قوانين الملكية الفكرية لعام ١٩٨٨م، ولا يجوز نسخ أو طبع أو إعادة نشر أي نص من هذا الكتاب لأغراض تجارية إلا بإذن خطي من الناشر أو المؤلف.

## تمهيد

ليس هناك أي كتاب مهما بلغ صاحبها في إتقانها أن يضع حداً لجميع التساؤلات حول مفهوم الأيديولوجيا الإقتصادية، وهذا راجع برأي إلى أن مفهوم الأيديولوجية من جهة والأيديولوجيا الإقتصادية من جهة أخرى ليس مفهوماً عابراً وعادياً بحيث تستطيع أن تعبر عن واقع ملموس فتصفه وصفاً شافياً، وليس مفهوماً متولداً عن بديهيات فيحدد حداً مجرداً، وإنما هو مفهوم إجتماعي تاريخي كما

قال عنه العروي، وبالتالي يحمل في ذاته آثار تطورات  
وصراعات ومناظرات إجتماعية وسياسية وإقتصادية عديدة،  
أي يمثل تراكم معانٍ مثله في هذا مثل مفاهيم أخرى كالدولة  
أو الحرية أو الإنسان.

ويدور الجدل بالنسبة لعلاقة الأيديولوجيا بالإقتصاد حول  
عدة مسائل مثل: هل علم الإقتصاد خال من  
الأيديولوجيا؟، وهل يجب أن يتخلص علم الإقتصاد من  
الأيديولوجيا إذا كان ذلك ممكناً؟، وما هو الجزء  
اللاأيديولوجي من علم الإقتصاد؟، كما أن الحديث عن  
الأيديولوجيا في علم الإقتصاد يؤدي إلى مسألة أن التحليل  
الإقتصادي يقود إلى نتائج متحيزة بسبب دخول  
الأيديولوجيا في النظرية الإقتصادية.

من أجل ذلك يستلزم منا لدراسة مفهوم الأيديولوجيا  
الإقتصادية الإطلاع على أصل كلمة الأيديولوجية والإقتصاد

بشكل منفصل عن بعض، ومن ثم التعرف على مفهوم الأيديولوجيا الاقتصادية؛ والتي حاولت بقدر المستطاع أن أرسم الخطوط العريضة لخلفيات المفهوم متوخياً توضيح المعاني ومناقشة الآراء، للوصول إلى خريطة ذهنية واضحة لهذا المفهوم العويص على الفهم.

وفي الختام أشكر الأستاذ (كمال ملا ياسين الريكاني) المشرف التربوي وأستاذ اللغة العربية لما قام به من جهد في التدقيق اللغوي لهذا الكتاب، وتزويدي بملاحظات قيّمة ساعدتني في تقديم مادة البحث بصورة أفضل، فجزاه الله عني خير جزاء؛ فهو نعم المولى ونعم النصير.

## الإقتصاد والأيدولوجيا إصطلاحاً

نشأت كلمة الإقتصاد من كلمة (oikonomia) الإغريقية القديمة، حيث تشير إلى تدير شؤون الأسرة التي كانت تشغل في العادة ضيعة إقطاعية<sup>(١)</sup>، وهي كلمة مركبة من أيكوس (oikos) العائلة، والجذر الدلالي المعقد

---

(١) هان وهارث، كريس وكيث، ٢٠١٤م: الأنثروبولوجيا الاقتصادية (التاريخ والإثنوغرافيا والنقد)، ترجمة: عبدالله فاضل، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص ٢٠.

(nem) ومن هنا يأتي معناها، تنظيم، إدارة، وتأسيس<sup>(١)</sup>، ولم يكن البيت (oikos) يعني مجرد العائلة أو الأسرة، لقد كان يشمل جميع سكان المنزل ومشتملاته المادية، ومن ثم فإن كلمة إيكونوميكس (economics) المأخوذة من الشكل اللاتيني للكلمة (oecus)، وهي فن إدارة البيت (oikos)، كانت تعني إدارة مزرعة، وليس القدرة على المحافظة على سلام الأسرة<sup>(٢)</sup>.

يعرف المدرسة الكلاسيكية بمن فيهم آدم سميث علم الإقتصاد بأنه علم الثروة، ولكنها لا تنظر للثروة على أنها مجرد المواد الطبيعية بوضعها الطبيعي، بل تشمل الثروة في نظرها بصورة خاصة الأشياء الوسيطة، أي وسائل تداول

---

(١) ففلي، م. إ.، ٢٠١١م: إقتصاد العالم القديم، ترجمة: د. عبد اللطيف الحارس،

هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) - الإمارات العربية المتحدة، ص ٥٣.

(٢) فينلي، م. آي.، ٢٠١٤م: عالم أوديسيوس، ترجمة وتقديم: محمد عبودي إبراهيم

والسيد جاد، المركز القومي للترجمة - القاهرة، ص ٧٢.



الثروة وخاصة النقود، كما أنها لا تنظر للثروة من وجهة نظر  
المادية والتكنيكية الصرف وإلاّ لأصبح الإقتصاد مجموع  
العلوم الطبيعية فقط دون إضافة أي جديد إليها، بل هي  
تدرس بصورة خاصة وسائل الحصول على الثروة ونتائج  
ذلك بالنسبة للإنسان، ولهذا إهتم الكلاسيكيون  
بالمؤسسات السياسية والحقائق النفسية والسلوكية في أبحاثهم  
الإقتصادية، أو بعبارة أخرى لم يغفل الكلاسيكيون الجانب  
الاجتماعي لعلم الإقتصاد، ولا يزال بعض الإقتصاديين حتى  
الآن يعرفون الإقتصاد بأنه علم الثروات (١).

أما جان بابتيست ساي فإنه أكد في مفهومه لعلم  
الإقتصاد لا على الثروة كموضوع للتملك، بل على عملية  
الانتقال الاجتماعي للثروة المادية من يد لأخرى، أو بعبارة

---

(١) كبه، إبراهيم، ١٩٧٠م: دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الإقتصادي، مطبعة

أخرى يؤكد على أن علم الإقتصاد هو في الجوهر علم التبادل<sup>(١)</sup>، وقد بقى هذا التعريف سائداً إلى وقت متأخر جداً في علم الإقتصاد الأكاديمي.

ومنذ ظهور المدرسة النمساوية في أواخر القرن الماضي، إتجه الإقتصاد الأكاديمي إلى التأكيد على الخواص النفسانية من النشاط الإقتصادي بإعتبار أن القيمة وهي الموضوع الأساسي للإقتصاد تتحدد من جهة بالتضحية الناشئة عن التنازل عن المال المتبادل، ومن الجهة الأخرى بالمنفعة الناشئة من الحصول على المال البديل، ومن هنا إنبثق التعريف الجديد لعلم الإقتصاد بأنه علم الأشياء النافعة<sup>(٢)</sup>.

---

(1) Say, Jean Baptiste, 1971 (1821): **A Treatise on Political Economy (or The Production, Distribution and Consumption of Wealth)**, Augustus M. Kelley. Publishers, New York, p. 120.

(٢) كبه، مصدر سابق، ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

وينظر ألفريد مارشال إلى علم الإقتصاد بأنه ذلك الجزء من النشاط الفردي والإجتماعي المتصل عن قرب بالحصول على وإستعمال المستلزمات المادية للرخاء<sup>(١)</sup>.

كما عرف كارل ماركس علم الإقتصاد بأنه: دراسة قانون حركة النظام الاجتماعي. بينما عرف لينين الإقتصاد بأنه: العلم الذي يدرس تطور النظم التاريخية للإنتاج الاجتماعي، وفي تعريف آخر له أيضاً: دراسة علائق الإنتاج في مجتمع تاريخي محدد من حيث نشوئها وتطورها وإنحلالها<sup>(٢)</sup>.

---

(1) Marshall, Alfred, 1890: **Principles of Economics**,  
Publisher: Macillan and Co., New York, p. 12- 23.

(٢) كبه، مصدر سابق، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

في حين عرف أوسكار لانكه الإقتصاد بأنه: العلم الذي  
يعنى بدراسة القوانين الإجتماعية التي تهيمن على إنتاج  
الوسائل المادية لإشباع الحاجات الإنسانية وتوزيعها<sup>(١)</sup>.

أما مفهوم الأيدولوجيا فهو من أشيع المفاهيم حالياً،  
واللفظ من أكثر الألفاظ تداولاً، ولكن معناه من أكثر  
المعاني إثارة للجدل، وبالتالي فهو أقل المفاهيم ثباتاً، فهو  
عند البعض مفهوم بل حتى مفهوم علمي، وعند آخرين  
معنى مبهم ومبتدل، بل يمكن أن يراه البعض سبباً.

وليس غريباً في العلوم الاجتماعية والإنسانية أن لا توجد  
تعريف دقيق مختصر متفق عليه لمعنى كلمة الأيدولوجيا،  
فالتعريف بحد ذاته يعتبر أحد أهم مصادر الخلاف بين

---

(١) لانكه، أوسكار، بدون تاريخ النشر: الإقتصاد السياسي (القضايا العامة)،  
تعريب وتقديم: الدكتور محمد سلمان حسن، ج١، منشورات دار الطليعة- بيروت،  
ص٦٣.

المشتغلين بهذه العلوم، لأن طبيعة العلوم الاجتماعية ومعظم العلوم الإنسانية تعمل في مجال دراسة الجوانب الاجتماعية للجنس البشري والتي من طبيعتها التبدل والتغير والإختلاف، وبالتالي الغموض وعدم اليقين، ويقول عالم النفس الأمريكي دافيد ماكليان: أن الأيديولوجيا هي أكثر المفاهيم مراوغة في العلوم الإنسانية بأكملها<sup>(١)</sup>.

ترتبط لفظة (الأيديولوجيا) في أذهان معظم الناس بالماركسية، وتتحدد ردود أفعالهم تجاهها إلى حد كبير بهذا الإرتباط، لذلك من الضروري أن نقرر أولاً أنه رغم أن الماركسية ساهمت بالكثير في العرض الأصلي للمشكلة، فإن الكلمة ومعانيها أبعده غوراً في التاريخ من الماركسية، وأفضل مدخل إلى المشكلة هو تحليل معاني لفظة (الأيديولوجيا)،

---

(١) هيود، أندرو، ٢٠١٢م: مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية، ترجمة: محمد

صفار، المركز القومي للترجمة- القاهرة، ص ١٤.

وأول ما ينبغي عمله هو أن نُميِّز بين جميع الاختلافات الدقيقة في المعنى التي تتداخل هنا مكونة وحدة مزيفة، وكلما عرضت الاختلافات في معاني المفهوم بصيغة أدق تمهد الطريق لتحليل هذا المفهوم تاريخياً وسوسولوجياً<sup>(١)</sup>.

في (٢٠ حزيران سنة ١٧٩٦م) قرأ المفكر الفرنسي ديستوت دي تراسي (١٧٥٤ - ١٨٣٦م) خطاباً أمام طلاب العلوم الأخلاقية والسياسية في المعهد الوطني في فرنسا تحت عنوان (بحث في القدرة على التفكير) بيّن فيها مصطلح الأيديولوجيا بأنها: علم الأفكار وأصولها. أي علم حالات الوعي، وتنظر الأيديولوجيا للأفكار بأنها نتاج لقوى البيئة المادية التي تشكل تفكير الناس، لا على أنها تظهر

---

(١) مانهايم، كارل، ١٩٨٠م: الأيديولوجيا واليوتوبيا (مقدمة في سوسولوجيا المعرفة)، ترجمة: الدكتور محمد رجا عبد الرحمن الديري، شركة المكتبات الكويتية- الكويت، ص ١٢٩.

عشوائياً من العقل أو الوعي، وهذا الخلق الجديد للكلمة كان يهدف إحلاله محل سيكولوجي التي كانت معيبة لأنها تستدعي النفس، وبذلك فالأيدولوجية تحلّق كما قال ميشيل فاديه إذا صح الكلام؛ فوق جميع العلوم، لأن العلوم ليست إلا أفكارنا وعلاقاتها المختلفة، هذه الأفكار شبيهة بالبلد الممتد واللائهائي التنوع، والمنقسم إلى مقاطعات عديدة، يوصلها ببعضها البعض عدد أكبر من طرق الإتصال، ولكن لكل هذه الطرق أصل واحد، بل إن أكثرها يبدأ من نقطة مشتركة ثم يتشعب فيما بعد وهذا الأصل الواحد، هذه النقاط المشتركة التي يجهلها المسافرون غالباً، يأخذ الأيدولوجي على عاتقه مهمة أن يعلمها لهم بشكل أساسي<sup>(١)</sup>.

---

(١) فاديه، ميشيل، ٢٠٠٦م: الأيدولوجية (وثائق من الأصول الفلسفية)، ترجمة: د.

أمينة رشيد وسيد البحراوي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ص ١٩.

أن كلمة الأيديولوجيا لها في الأصل أهمية وجودية، إذ أنها لم تكن تحتوي على أي قرار بخصوص قيمة المجالات المختلفة في واقع الحياة، لأنها في الأصل لا تدل إلا على نظرية في الأفكار، فقد كان الأيديولوجيون كما نعلم أعضاء في جماعة فلسفية في فرنسا، كانت حسب تعاليم كوندياك ترفض الميتافيزيقا وتسعى لأن تقيم العلوم الثقافية على أسس أنثروبولوجية وسيكولوجية، لقد ولد التصور الحديث للايديولوجيا حينما اكتشف نابليون أن هذه الجماعة من الفلاسفة تعارض طموحاته الإمبراطورية، فأطلق عليهم بإحتقار اسم (الأيديولوجيين)، وبهذا إتخذت الكلمة معنى تحقيرياً شأنها في ذلك شأن كلمة (النظرية اللاعلمي) واحتفظت به حتى اليوم، ومن هنا فإن كل فكر يصنّف تحت باب الأيديولوجيا يعتبر فكراً عقيماً حين يصل الأمر إلى الممارسة الفعلية، ويصبح النشاط العملي هو الطريق



الوحيد الموثوق الذي يجب أن نسعى إليه لكي يوصلنا إلى الواقع، وحين يقاس التفكير والتأمل في وضع ما بمقاييس السلوك العملي يتبين أنهما تافهين، وهكذا يتضح أن المعنى الجديد لكلمة أيديولوجيا يحمل طابع مركز ووجهة نظر الذين إبتكروها وهم رجال العمل السياسيون<sup>(١)</sup>.

ويشير شاتليه إلى أن الأيديولوجيا مشيئة، فهي تهدف إلى إبقاء الوضع الحالي للأشياء، فهي في جوهرها مضادة للتاريخ، بينما يرى ميشيل فوكو أن مصطلح أيديولوجيا يصعب إستعماله لثلاثة أسباب: السبب الأول: هو أن الأيديولوجيا شئنا أم أبينا هي دوماً في حالة تعارض ضمني مع شيء هو بمثابة الحقيقة، والحال أني أعتقد أن المشكل

---

(١) مانهايم، كارل، ١٩٨٠م: الأيديولوجيا واليوتوبيا (مقدمة في سوسيولوجيا

المعرفة)، ترجمة: الدكتور محمد رجا عبد الرحمن الديريني، شركة المكتبات الكويتية،

ص١٤٢-١٤٣.

ليس هو الفصل بين ما ينتمي إلى العلمية وإلى الحقيقة في خطاب ما، وبين ما قد يتعلق بشيء آخر، بل إن المشكل هو أن نرى كيف ينتج تاريخياً بعض مفعولات الحقيقة داخل خطابات ليست لا صحيحة ولا خاطئة في حد ذاتها، والعائق الثاني: هو أن مصطلح الأيديولوجيا يحيل ضرورة على ما يبدو إلى شيء هو بمثابة الذات، وثالثها: الأيديولوجيا في موقع ثانوي بالنسبة إلى شيء يتعين أن يشغل بالنسبة إليها دور بنية تحتية أو محدد إقتصادي، مادي... إلخ<sup>(١)</sup>.

ويرى سارتر أن رجال الثقافة الذين يأتون بعد فترات الإزدهار الكبيرة، والذين يشرعون في ترتيب الأنظمة أو إكتساب أراض لا تزال غير معروفة تماماً من خلال مناهج

---

(١) فوكو، ميشيل، ١٩٨٤م: نظام الخطاب، ترجمة: د. محمد سبيلا، دار التنوير

للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ص ٦٢ - ٦٣.

جديدة، والذين يعطون للنظرية وظائف عملية، ويستعملونها كأداة للهدم أو للبناء؛ هؤلاء لا يصحّ أن نسميهم فلاسفة، فهم يستغلون الأرضية، ويرصدون ما فيها، وقيمون عليها بعض الأبنية، ويصدف حتى أن يحدثوا فيها بعض التغيرات الداخلية، ولكنهم يظلون يتغذون على فكر الموتى العظماء، هذا الفكر تحمله الجماهير المتحركة، التي تشكل وسطهم الثقافي ومستقبلهم، وتحدد مجال أبحاثهم وحتى إبداعهم، إنني أقترح أن نسمي هؤلاء الرجال النسبيين: الأيديولوجيين<sup>(١)</sup>.

وذهب كارل ياسبرس بأن الأيديولوجية هي تركيبة من الأفكار أو التمثلات، تبدو في نظر الذات تفسيراً للعالم أو لوضعها الخاص، وهذا التفسير يمثل لها الحقيقة المطلقة، ولكن على شكل وهم، به تبرر نفسها أو تخفيها أو تهرّبها بشكل أو آخر، ولكن لصالحها المباشر، إن رؤية الفكرة

---

(١) فاديه، مصدر سابق، ص ٢١-٢٢.

كأيديولوجية تساوي كشف الخطأ، رفع القناع عن الشر،  
والإشارة إليه على أنه أيديولوجية، وهذا يرجع إلى إتهامها  
بالكذب وعدم الأمانة، وليس هناك أعنف من هذا  
الهجوم<sup>(١)</sup>.

في حين بيّن العروي بأن كلمة أيديولوجيا دخيلة على  
جميع اللغات الحية، فهي تعني لغوياً في أصلها الفرنسي علم  
الأفكار، لكنها لم تحتفظ بالمعنى اللغوي، إذ إستعارها الألمان  
وضمنوها معنى آخر، ثم رجعت إلى الفرنسية فأصبحت  
دخيلة حتى في لغتها الأصلية، ويرى عبد الله العروي من  
خلال كتابه (مفهوم الأيديولوجيا) أنه ليس من الغريب أن  
يعجز الكتاب العرب عن ترجمة كلمة الأيديولوجيا بكيفية  
مرضية، كون أن العبارات التي تقابلها من أمثال: منظومة  
فكرية، عقيدة، ذهنية، إلخ، تشير فقط إلى معنى واحد من

---

(١) فاديه، مصدر سابق، ص ٢٢.

بين معانيها، إننا نجد في العلوم الإسلامية لفظة لعبت دوراً محورياً كالدور الذي تلعبه اليوم كلمة أيديولوجيا، وهي لفظة الدعوة في الإستعمال الباطني، غير أنه من المستحيل إحيائها والإستعاضة بها عن كلمة أيديولوجيا التي انتشرت رغم عدم مطابقتها لأي وزن عربي، لذا أقترح العروي بأن نعزّبها تماماً وندخلها في قالب من قوالب الصرف العربي، وقد أعطى المثل واستعمل كلمة (أدلوجة) على وزن أفعولة وصرّفها حسب قواعد اللغة العربية.

نقول أن الحزب الفلاني يحمل أدلوجة، والتي تعني بها مجموع القيم والأخلاق والأهداف التي ينوي تحقيقها على المدى القريب والبعيد، وبذلك يكتسي هذا الحكم من وجهة نظر العروي في إستعمالنا الحالي صيغة إيجابية، لأن الحزب الذي لا يملك أدلوجة هو في نظرنا حزب إنتهازي، ظرفي، لا يهيمه سوى إستغلال النفوذ والسلطة.

ويرى العروى بأنه حينما ندرس أدلوجة عصر النهضة فإننا نعني بها النظر التي كان يلقيها رجل النهضة إلى الكون والمجتمع والفرد والتي يندرج تحت قواعدها العامة كل تقرير أو حكم صدر في ذلك العصر، إننا لا نقارن نتائج علماء النهضة بالعلم المعاصر، بل نربطها بفلسفة وأدب وفن وسياسة العهد المذكور، أدلوجة عصر من العصور هي إذن الأفق الذهني الذي كان يحد فكر إنسان ذلك العصر.

كما يشبه العروى لفظة (الدعوة) والدور الذي لعبته في العلوم الإسلامية بالدور المحوري الذي تلعبه لفظة أيديولوجيا في العصر الحديث، كما يصف الحزب بأنه يحمل أيديولوجية إذا كان يعلن ويلتزم مجموعة من القيم والأخلاق والأهداف التي ينوي تحقيقها، كما يسمى أيديولوجيا عصر من العصور بأنها نظرة إنسان ذلك العصر إلى الكون والمجتمع والفرد، أي

أن الأيديولوجيا لعصر من العصور هي الأفق الذهني لإنسان ذلك العصر (١).

في مقدمة من عرضوا للمفهوم الماركسي للأيديولوجيا كارل مائهايم (١٨٩٣ - ١٩٤٧م) الذي كان من أقطاب علم الاجتماع في ألمانيا الذين تأثروا بنظريات المفكر الألماني ماكس فيبر، فكان إعتراض مائهايم على نظرية الماركسيين أنها لا تميز بين الأيديولوجيا الخاصة بالفرد، التي ترى أن كل الأفكار التي تختلف عنها مجرد أوهام أو أباطيل، والأيديولوجيا الشاملة الخاصة بزمن ما أو جماعة ما، وهذا هو المعنى الذي يدخل في مفهوم روح العصر، على أن النوعين من الأيديولوجيا يشتركان في رأي مائهايم في كونهما رهن الظروف الإجتماعية لكل فرد ولكل جماعة، الأمر

---

(١) العروي، عبدالله، ١٩٩٣م: مفهوم الأيديولوجيا، ط٥، المركز الثقافي العربي -

الذي يجعل من الصعب تحديد مضمون الأيديولوجيا في وقت معين من الزمن، فالأيديولوجيا من وجهة نظر مانهائم هو نظام فكري يمكن أن يتعايش مع الحالة الراهنة في المجتمع.

ولعل كارل مانهائم هو أول من تجاوز المفهوم الذي طرحه ماركس للأيديولوجية، عندما تحدث ماركس عن الأيديولوجيا كقناع للطبقة السائدة، حيث إعتقد مانهائم بأن التناقض بين الفكر والمعرفة وبين الأوضاع الاجتماعية التاريخية ليس محصوراً في طبقة بذاتها، ولا في مرحلة من مراحل التاريخ المختلفة، إنما يتعدى ذلك إلى الجماعات الإنسانية برمتها، مما أثار من جديد البعد النسبي للمعرفة متجلباً بأيديولوجية الفرد، بعد أن كان ذلك محصوراً بأيديولوجية الجماعات، ويعترف مانهائم بأن لفظة الأيديولوجية ترتبط في معظم أذهان الناس بالماركسية وتتحدد ردود فعلهم تجاهها إلى حد



كبير بهذا الإرتباط، ورغم أنه يقر بأن الماركسية قد ساهمت  
بالعرض الأصلي للمشكلة، ويقصد في هذا المجال  
الأيدولوجية كقناع، فإنه يذكر بأن الكلمة ومعانيها أبعد  
غوراً في التاريخ المعرفي من الماركسية، وأنها منذ الماركسية قد  
أخذت مفاهيماً وأشكالاً وأطباعاتاً مختلفة عما عرفته في  
الماركسية، مفضلاً التمييز بين لفظة الأيدولوجية بالمعنى  
الجزئي وبين معناها الكلي، فالمعنى الجزئي يكون هو المقصود  
ضمناً عندما تدل الكلمة على أننا نتخذ موقفاً متشككاً  
تجاه الأفكار والتصورات التي يتقدم بها خصمنا، إذ نعتبرها  
تمويهات واعية بدرجات مختلفة لإخفاء الوضع الحقيقي،  
وهي تحريفات تتراوح ما بين الخداع المتعمد للآخرين أو  
خداع النفس إلى التمويهات شبه المقصودة فالأكاذيب  
المقصودة.

إن التمييز بين الأنصار والخصوم، بين الأصدقاء والأعداء، أي آلية تمجيد الذات وإضفاء صبغة مثالية على الأنا والنحن، وفي الوقت نفسه الحط من قيمة الآخر وإضفاء صبغة شيطانية عليه، هذه الآلية الثنائية التي تنسب الخير كله والفضل كله للذات، والشر كله والسوء كله للغير، آلية دارجة في كل الأيديولوجيات إن لم تكن هي العمود الفقري للتفكير الأيديولوجي، وسواء تعلق الأمر بأيديولوجيات ذات صبغة دينية أو أيديولوجيات علمانية، وسواء تعلق الأمر بأيديولوجيات ثقافية أو بأيديولوجيات سياسية، وسواء تعلق الأمر بأيديولوجيات كبرى أو بأيديولوجيات مشتقة، فإن هناك دوماً في كل من هذه الأيديولوجيات ميلاً إلى إضفاء صبغة مثالية على الذات، وإلى إضفاء صبغة شيطانية على الآخر<sup>(١)</sup>.

---

(١) علي، مصدر سابق، ص ١١٠-١١٦.

ويرى ماهايم أنه يوجد بصورة عامة معنيان متميزان وقابلان للإنفصال للفظة الأيديولوجيا، وهما المعنى الجزئي والمعنى الكلي.

فالمعنى الجزئي للفظة الأيديولوجيا يكون هو المقصود ضمناً عندما تدل الكلمة على أننا نتخذ موقفاً متشككاً تجاه الأفكار والتصورات التي يتقدم بها خصمنا، إذ نعتبرها تمويهات واعية بدرجات متفاوتة، تخفي الطبيعة الحقيقية لوضع لن يكون الإعراف بحقيقته متفقاً مع مصالح هذا الخصم، وتتراوح هذه التحريفات بين الأكاذيب المقصودة، والتمويهات شبه المقصودة أو غير المقصودة، وبين المحاولات المتعمدة لخداع الآخرين أو خداع النفس، هذا التصور للأيديولوجيا الذي أصبح بالتدرج متميزاً عن المفهوم العادي للكذب هو تصور جزئي بمعان متعددة، وتوضح جزئيته عندما نقارنه بالتصور الكلي الأكثر شمولاً للفظة

الأيدولوجيا، فنحن في الحالة الأخيرة نشير إلى أيدولوجيا عصر ما أو أيدولوجيا جماعة تاريخية إجتماعية محددة، كأيدولوجيا طبقة مثلاً، عندما يكون هدفنا هو أن نوضح سمات وتركيب البناء الكلي لعقلية ذلك العصر أو هذه الجماعة.

ولا شك أن العناصر المشتركة والعناصر المتميزة في هذه المفهومين واضحة تماماً، أما العنصر المشترك بينهما فيكمن في أن كلاً منهما لا يعتمد فقط على ما يقوله الخصم فعلاً، لكي يتوصل إلى فهم معناه ومقصده الحقيقيين، فكلاهما يرتد إلى الذات فرداً كانت أو جماعة، ويسير نحو فهم ما يقال بطريقة تحليل الظروف الاجتماعية للفرد أو لجماعته، وهكذا تعتبر الأفكار التي تعبر عنها الذات نتاجاً لوجودها، وبناءً على هذين التصورين للأيدولوجيا يرى ماتهايم وجود اختلافات هامة بينهما، على الرغم من أن كلاً التصورين

ينظران إلى ما يسمى بالأفكار على أنه نتاج لمن يقول به  
ولوضعه في بيئته الاجتماعية، إلا أن الاختلافات تكمن  
في (١):

أ- ففي حين لا يطلق التصور الجزئي للأيدولوجيا اسم  
الأيدولوجيا إلا على جزء من أقوال الخصم، وذلك  
بالنسبة إلى محتواها فقط، فإن التصور الكلي يشك  
في نظرة الخصم إلى العالم بأسرها، بما في ذلك مجموعة  
المفاهيم التي يستخدمها، ويحاول أن يفهم هذه  
المفاهيم على اعتبار أنها ثمرة للحياة الجماعية التي  
يشارك فيها الخصم.

ب- يقوم التصور الجزئي للأيدولوجيا بتحليله للأفكار  
على مستوى سيكولوجي محض، فإذا ادّعي مثلاً أن  
الخصم يكذب، أو أنه يخفي أو يحرف وضعاً واقعياً

---

(١) مانهايم، مصدر سابق، ص ١٢٩ - ١٣٥.

معيناً، فإنه يظل من المسلم به رغم ذلك أن الطرفين كليهما يشتركان في معايير مشتركة للصواب، ويظل يفترض أن من الممكن دحض الأكاذيب وإستئصال مصادر الخطأ بالرجوع إلى معايير للصواب الموضوعي مقبولة ومشتركة لدى الطرفين، وهكذا فإن الشك في أن الخصم ضحية لأيديولوجية ما لا يصل إلى حد إستبعاده من النقاش على أساس إطار مرجعي نظري مشترك، لكن الحالة تختلف حين نتطرق إلى التصور الكلي للأيديولوجيا، فحين ننسب لحقبة تاريخية ما عالماً فكرياً معيناً، وننسب لأنفسنا عالماً فكرياً آخر، فإننا لا نشير بذلك إلى بعض المحتويات الفكرية المعزولة، ولكن إلى أنساق فكرية مختلفة إختلافاً أساسياً، وإلى أنماط من الخبرة والتفسير مختلفة عن بعضها إختلافاً كبيراً، يقول ماركس: ليست المقولات

الإقتصادية سوى التعبيرات النظرية أو التجريدات  
الذهنية لعلاقات الإنتاج الإجتماعية، وإن نفس  
الناس الذين يقيمون علاقات إجتماعية تتفق مع  
قوى إنتاجهم المادية، ليضعون أيضاً المبادئ والأفكار  
والمقولات وفقاً لعلاقاتهم الإجتماعية.

ت- إن التصور الجزئي للأيدولوجيا يستعمل بصورة  
أولية سيكولوجية الإهتمامات، بينما يستخدم  
التصور الكلي تحليلاً وظيفياً شكلياً دون أية إشارة  
للدوافع ويحصر نفسه في وصف موضوعي  
للإختلافات البنيوية في العقول التي تعمل ضمن  
أوضاع إجتماعية مختلفة، التصور الجزئي يفترض أن  
هذا الاهتمام أو ذاك هو السبب لكذبة ما أو تمويه  
معين، أما التصور الكلي فيفترض سلفاً وببساطة أن  
ثمة تطابقاً بين وضع إجتماعي معين ومنظور معين،

أو وجهة نظر معينة، أو مجموعة معينة من الإدراكات  
المترابطة.

ويرى بول ريكور أن مفارقة مانهائم ناجمة عن ملاحظته  
لتطور المفهوم الماركسي للأيديولوجيا، والمفارقة هي عدم  
إمكانية تطبيق مفهوم الأيديولوجيا على نفسه، بكلمات  
أخرى إذا كان كل شيء نقوله متحيزاً، وإذا كان كل ما  
نقوله يمثل مصالح لا نعرفها، كيف يتسنى لنا إمتلاك نظرية  
في الأيديولوجيا لا تكون نفسها أيديولوجيا؟ إنعكاس مفهوم  
الأيديولوجيا على نفسه يوّلد المفارقة (١).

والأيديولوجيا من وجهة نظر بول ريكور مفهوم مثير  
للسجال دائماً، والأيديولوجي ليس أبداً موقف الشخص  
المتكلم، إنه دائماً موقف شخص آخر، دائماً أيديولوجيتهم،

---

(١) ريكور، بول، ٢٠٠٢م: محاضرات في الأيديولوجيا والبيوتوبيا، ترجمة: فلاح

رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة- بيروت، ص ٥٥.



والأيديولوجيا عندما توصف بطريقة فضفاضة جداً تكون خطأ إرتكبه الآخر، لذلك فإن الناس لا يقولون أبداً أنهم أنفسهم دعاة أيديولوجية ما، المصطلح موجه دائماً ضد الآخر<sup>(١)</sup>.

أما مفهوم الأيديولوجيا عند انجلز وماركس فقد برز عندما أشار إنجلز في رده على رسالة وجهت إليه من فرانز مهرنج في برلين عام (١٨٩٣م)، يسأله فيها عن مفهوم الأيديولوجيا فقال: الأيديولوجيا هي عملية يقوم بها من يسمى بالمفكر، وإن عن إدراك، ولكن عن إدراك خاطئ، فإن القوى المحركة الحقيقية التي تحمله على النشاط تظل مجهولة بالنسبة إليه، وإلاّ لما كانت العملية عملية

---

(١) ريكور، مصدر سابق، ص ٤٩.

أيدولوجية، ولذا يصنع لنفسه تصورات عن قوى حافزة كاذبة أو ظاهرية<sup>(١)</sup>.

إتخذت كلمة الأيدولوجيا في مذهب هذين المفكرين معنيين مختلفين أتم الإختلاف، وكان أول تعريف في كتاب (الأيدولوجية الألمانية) عبارة عن تأكيد للدلالة التي عبّر بها نابليون عن رفضه للفلسفة المثالية المتوارثة عن فكرة هيغل، فكان رأيهما في الأيدولوجيا، أنها مجموعة من الأخطاء والأوهام والتلفيقات التي يمكن شرحها إستناداً إلى التاريخ الذي تناولته بالتشويه والتغيير فقالوا: إن أفكار الطبقة الحاكمة في كل العصور هي الأفكار المسيطرة، لذلك فإن

---

(١) انجلز، ١٩٨٣م: من انجلس إلى فرانتس مهربنغ، بدون مكان النشر،

الطبقة ذات القوة المادية السائدة في المجتمع هي دائماً القوة الفكرية المسيطرة في المجتمع<sup>(١)</sup>.

ثم إتخذ المصطلح معنى واسعاً بعد ذلك بحيث أصبح معناه: الفكرة التي تستبد بصاحبها، ويحاول أن يفسر بها الوجود كله، والنظم الاجتماعية كلها، وبناء على ذلك يكون الوجود كله كأنما هو كتلة واحدة متماسكة مشتملة على كل أجزائها، بحيث لا تستطيع أن تمس جزءاً يتغير، إلا ويتغير النظام كله، وأصحاب هذه النزعة يتخذون حيال أفكارهم المستبدة بعقولهم وقففة مغلقة، فإما أن تقبلها كلها وتقبل النظام الذي يترتب عليها كله، وإما أن ترفضها كلها وترفض أيضاً النظام الذي يترتب عليها، أي أنهم لا

---

(١) ماركس وأنجلز، بدون تاريخ النشر: الإيديولوجية الألمانية، ترجمة: الدكتور

فؤاد أيوب، دار دمشق - بيروت، ص ٦١ - ٧٧.

يسمحون بالنقد الجزئي الذي يحاول أن يصلح جزءاً دون جزء آخر، أو فكرة من البناء الشامل دون فكرة.

إن لفظ الأيديولوجيا يطلق بمعنيين: أحدهما مذموم والآخر مقبول، فالمعنى المذموم تكون الأيديولوجية فيه هي آراء الخصم الظاهرية التي تخفي الطبيعة الحقيقية لموقفه، والتي ليس من صالح ذلك الخصم الكشف عنها، وبالمعنى المقبول يقال أن أيديولوجية عصر أو طبقة ما هي إلا خصائص الدهن وتركيبه في ذلك العصر أو تلك الطبقة، ويظهر هذان المعنيان معاً في الفلسفة الماركسية التي يرجع إليها إذاعة شهرة لفظ الأيديولوجيا: فترى ماركس يتحدث عن الأيديولوجيا على أنها تمثل مواقف الناس كما لو كانت في صورة مقلوبة، ويضع الأيديولوجيا مقابل التفكير العلمي الأصيل، وينظر إلى مذهبه ذاته على أنه تجاوز للأيديولوجيا وكشف لخداعها، وبهذا المعنى يتحدث عن الأيديولوجيا الألمانية

بوصفها مذهباً فكرياً لفلاسفة خضعوا لمؤثرات لم يشعروا بها، على حين أن فلسفته هو لم تكن في نظره أيديولوجيا، بمعنى أنه لا بد أن يعكس ظروف طبقة معينة، وهكذا اختفى التقابل القديم بين الأيديولوجيا وبين التفكير العلمي، وأصبحنا نجد مفكراً ماركسياً مثل الفرنسي الذي أُعدم على يد النازيين رميةً بالرصاص جورج بوليتز (١٩٠٣-١٩٤٢م)، يصف الأيديولوجيا بأنها: مجموعة من الأفكار تُكون كلاً أو نظرية أو مذهباً أو حالة ذهنية فقط في بعض الأحيان، ويعترف بأن المذهب الماركسي ذاته له أيديولوجية التي تعكس تأثير العوامل الإقتصادية والاجتماعية المؤثرة في الطبقة العاملة<sup>(١)</sup>.

من المهم ملاحظة أن ماركس قدم المصطلح عبر إستعارة أستلّفها من التجربة الفيزيائية أو الفسيولوجية: تجربة الصورة

---

(١) علي، مصدر سابق، ص ١٠٢-١٠٥.

المقلوبة التي تظهر في الكاميرا أو على شبكة العين، تقدم لنا هذه الإستعارة المتمثلة في الصورة المقلوبة والتجربة الفيزيائية التي تكمن خلف الإستعارة، المثال أو الأنموذج الذي يطرح التشويه بإعتباره قلباً، إن مثال الصورة المقلوبة للواقع هذا مهم جداً في موضعه مفهومنا الأول: الأيديولوجيا، وظيفة الأيديولوجيا الأولى هي إنتاج صورة مقلوبة، هذا المفهوم الذي ما يزال شكلياً للأيديولوجيا يكتمل عبر وصف محدد لفعاليات فكرية وروحية محددة توصف بأنها صور مقلوبة عن الواقع، بإعتبارها تشويهاً أنتجها القلب، ويرى بول ريكور بأن ماركس يعتمد هنا على أنموذج قدمه فويرباخ الذي وصف الدين وناقشه بإعتباره إنعكاساً مقلوباً على وجه الدقة للواقع.

لقد قال فويرباخ إن علاقة المسند والمسند إليه في المسيحية مقلوبة، فبينما يمثل البشر في الواقع مسنداً إليه

أسقط على المقدس صفاته الخاصة (مسندة الإنساني الخاص) فإن البشر يدركون المقدس في الواقع بوصفه مسنداً إليه تكون نحن مسنده، وبذلك فمن وجهة نظر ريكور بأن فويرباخ وماركس يمثل ردة فعل ضد أنموذج هيغل الذي يقلب الأشياء رأساً على عقب، وتهدف محاولتهما إعادتها إلى وضع الوقوف الصحيح، حيث الأقدام على الأرض، إن صورة القلب مثيرة وهي الصورة المولدة لمفهوم ماركس للأيديولوجيا، وماركس الشاب وهو يوسع المفهوم المستعار من فويرباخ للدين بوصفه قلباً حاصلاً بين المسند والمسند إليه، يمد هذه الوظيفة المتصلة بالمثل لتشمل عالم الأفكار برمته (١).

وقد أطلق ماركس عبارة الوعي الزائف، وكان أساس هذا التعبير النقدي للأيديولوجيا الرغبة في تنفيذ نظرية هيغل

---

(١) ريكور، مصدر سابق، ص ٥٠ - ٥١.

المثالية التي ترى أن البشر ما هم إلا أدوات في أيدي التاريخ، يقومون بأدوار عُهدت إليهم من قِبَل قوى مستعصية على الإدراك، والفيلسوف وحده في رأي هيغل هو القادر على أن يفهم وقائع العالم على حقيقتها، وإن كان من الضروري توضيح أن هذا ليس معناه أن كل وعي زائف أيديولوجيا، إذ من الممكن أن يكون له أكثر من سبب من الأسباب كنقص المعلومات أو عدم القدرة على الملاحظة الكافية للحكم على الظاهرة، ولكن الأيديولوجيا هي الوعي الزائف الناتج من التكوين الطبقي للمجتمع، والذي يؤدي إلى ستر التناقضات الطبقيّة وبالتالي يساعد على إمكانية إستمرار وضع الإستغلال، ولا يتم ذلك بشكل واع<sup>(١)</sup>.

إلا أنه في نصوص أخرى إعتبر الأيديولوجيا هي مكونات البناء الفوقي، وهذا يعطيها معنى مختلفاً إذ يساوي بين البناء

---

(١) مبروك، مصدر سابق، ص ١١١.



الفوقي والأيدولوجيا مما يجعلنا نعتقد أن كل البناء الفوقي هو واعي زائف، وهذا يتناقض مع الفهم الأول الذي يمكن إستنتاجه من أغلب كتابات ماركس، ولا سيما في الفترة الأخيرة من حياته إذ إنه على سبيل المثال يرى في علم الإقتصاد السياسي البرجوازي جوانب علمية، وجوانب أخرى أيدولوجية، ويرى ماركس أن دور العلم هو كشف التشويه الأيدولوجي وليس القضاء عليه، لأن القضاء عليه يقتضي تغيير الواقع، وكما يقول فإن الإنسان لا يستطيع أن يخل في فكره التناقضات التي لا يمكنه حلها في الواقع، وقد إعتبر إكتشافاته في مجالات الفلسفة والإقتصاد ونظريته في التاريخ علماً يكشف التناقضات في المجتمع الرأسمالي، وأنه يتعين بناءً على هذا العلم العمل على القضاء على المجتمع

الطبقي، وبالتالي القضاء على التناقضات التي تؤدي إلى ظهور الأيديولوجيا وهكذا تكون نهاية الأيديولوجيا<sup>(١)</sup>.

كان نقد ماركس موجهاً ضد هذه المحاولة لتبرير الحالة الراهنة في المجتمعات، إذ يقول: على نقيض الفلسفة الألمانية التي تهبط من السماء إلى الأرض فإننا نصعد هنا من الأرض إلى السماء، بعبارة أخرى إننا لا ننطلق مما يقوله البشر ويتوهمونه ويتصورونه، بل يتم الإنطلاق من البشر في فعاليتهم الحقيقية، إذ ليس الوعي هو الذي يحدد الحياة، بل الحياة هي التي تحدد الوعي. وهنا بدأت الدلالة الأخرى للأيديولوجيا في الظهور عندما أشار ماركس في مقدمة كتابه (مساهمة في نقد الإقتصاد السياسي) عام (١٨٥٩م) إلى: أن نمط إنتاج الحياة المادية يحدد عملية الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بوجه عام، فليس وعي البشر هو الذي

---

(١) علي، مصدر سابق، ص ١٠٩.

يحدد وجودهم، بل إن وجودهم الإجتماعي هو الذي يحدد  
وعينهم.

يدل المعنى السابق على أن الأشكال المختلفة التي  
تتخذها أيديولوجيا معينة، ما هي إلا تعبيرات عن المتغيرات  
التي تطرأ على الظروف الإقتصادية للإنتاج، وتشكل قوى  
الإنتاج وعلاقاته معاً ما يسميه ماركس بالبنية الإقتصادية  
للمجتمع أو البنية التحتية، ومن هذا الأساس الإقتصادي  
تنشأ في كل مرحلة بنية فوقية أو أشكال محددة من القانون  
والسياسة، ونوع محدد من الدولة وظيفتها الأساسية هي  
إضفاء الشرعية على سلطة الطبقة الإجتماعية التي تملك  
أدوات الإنتاج الإقتصادي، ولكن البنية الفوقية تحتوي على  
أكثر من ذلك، أنها تتكون من أشكال محددة من الوعي  
الإجتماعي (أشكال سياسية، ودينية، وأخلاقية، وجمالية...  
إلخ) يسميها ماركس الأيديولوجيا، ووظيفة الأيديولوجيا هي

إضفاء الشرعية على سلطة الطبقة الحاكمة في المجتمع،  
فالأفكار السائدة في المجتمع هي أفكار الطبقة التي تحكم  
هذا المجتمع، فيقول ماركس: الواقع أن كل طبقة جديدة تحل  
محل الطبقة التي كانت تسيطر قبلها، وتضطر لكي تصل إلى  
أهدافها، أن تُصوّر مصلحتها كأنها المصلحة المشتركة لكل  
أفراد المجتمع (١).

وبقدر ما تسيطر الطبقة المستغلة وتصبح عائقاً في وجه  
التطور الاجتماعي الأوسع، بقدر ما تستخدم أيديولوجيتها  
في الحفاظ على سيطرتها، وفي محاربة الطبقات المقهورة  
والمستغلة التي تتطور (٢)، وهنا يؤكد ماركس أن الطبقات  
ليست جامدة لا تتغير، ولا هي شيء معطى منذ البداية،

---

(١) مبروك، د. أمل، بدون تاريخ النشر: الأسطورة والإيديولوجيا، دار التنوير

للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ص ١١١ - ١١٤.

(٢) فاديه، مصدر سابق، ص ٢٨.

بل هي نتاج تطور تاريخي في الوقت الذي هي فيه القوى المحركة لذلك التطور، فالمجتمع البورجوازي الحديث الذي إنبثق من أنقاض المجتمع الإقطاعي لم يزل التناقضات الطبقيّة، بل أدى إلى قيام طبقات جديدة وشروط قهر جديدة وأشكال نضال لتحل محل الأشكال القديمة، غير أن الحقبة البورجوازية تملك ميزة واضحة هي أنها بسطت التناقضات الإجتماعية، فالمجتمع ككل يزداد إنقساماً بإطراد إلى معسكرين كبيرين متعارضين، أي طبقتين تواجهان بعضهما مباشرة، البورجوازية والبروليتاريا.

من يملك الوعي فيما يرى ماركس هي الطبقة التي تنشأ تحرير الإنسان من الأوهام المتعالية التي تحجب عنه الواقع العياني، وتضع روحه في عالم الظلمة، وتجعله غريباً عن حياته الحقيقية، هذه الطبقة هي البروليتاريا، الطبقة الوحيدة التي بتحررها تتحرر البشرية بكاملها، إذ إن مصير البشرية

مرهون بمصيرها، إنها الطبقة التي لا تحتاج إلى أية أيديولوجيا لتخفي بؤسها تحت حجاب من العمومية، إنها الطبقة التي يجسد بؤسها بؤس البشرية، ففي اللحظة التي تتمرد فيها من واقعها ومن شقائها يتحرر الجميع من بؤسهم وشقائهم<sup>(١)</sup>.

لقد أعطى الفكر الماركسي للممارسة السياسية وللتفسير الإقتصادي للأحداث قدراً حاسماً من الأهمية، بحيث أصبحت المعيارين النهائيين لفصل العناصر الأيديولوجية في الفكر عن العناصر ذات الصلة المباشرة بالأمر الواقع، ولهذا فإنه ليس من الغريب أن تعتبر التصور الأيديولوجي من صلب الحركة البروليتارية الماركسية بل ومتماثلاً معها، لكنه قد تم تجاوز هذه المرحلة نتيجة لتطورات فكرية وإجتماعية أحدثت، ولم تعقب الفكر البرجوازي حتى أسسه الأيديولوجية ثم إضعاف الثقة به إمتيازاً مقصوراً على المفكرين الإشتراكيين، فبعد

---

(١) مبروك، مصدر سابق، ص ١٤ - ١٥.

ماركس استعمل كل جماعة ذات وجهة نظر خاصة هذا السلاح ضد كل الجماعات الأخرى، ونتيجة لهذا فإننا دخلنا في حقبة جديدة كما يقول مانهائم في التطور الفكر والإجتماعي.

في ألمانيا قامت البدايات الأولى في هذا الإتجاه على يد ماكس فيبر وسومبارت وتر ويلش، وهم أبرز من يمثلون هذا التطور، وتزداد الصحة في كلمات ماكس فيبر وضوحاً بمرور الأيام، فهو يقول: ليس التصور المادي للتاريخ سيارة أجرة يدخلها المرء ويخرج منها كما يشاء، فإن من يدخلها يفقد حريته في مغادرتها، حتى ولو كان من الثوريين. ويرى مانهائم أن تحليل الفكر والأفكار على أساس أنهما أيديولوجيات أوسع في التطبيق وأهم كسلاح من أن يصبح إمتيازاً إحتكارياً مقصوراً على طرف واحد أو حزب واحد، وليس

ثمة ما يمنع خصوم الماركسية من الإفادة من هذا السلاح وتوجيهه ضد الماركسية نفسها<sup>(١)</sup>.

أما فلاديمير لينين فقد إعتبر الأيديولوجيا بأنها مجموع أشكال المعرفة والنظريات التي تنتجها طبقة معينة للتعبير عن مصالحها، وبالتالي فكما أن هناك أيديولوجية برجوازية فإن هناك أيضاً أيديولوجيا بروليتارية، وأن الأيديولوجيا البرجوازية غير علمية، بينما أيديولوجيا البروليتاريا علمية، وبذلك إرتبطت الأيديولوجيا بالطبقة بصرف النظر عن تقييمها المعرفي<sup>(٢)</sup>.

ولعل أنطونيو جرامش (١٩٣٥ - ١٩٧١م) قام بتطوير الماركسية عن الأيديولوجيا إلى حد أبعد، حيث يرى جرامشي أن نظام الطبقات الرأسمالي لا يقوم ببساطة على

---

(١) مانهايم، مصدر سابق، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) علي، مصدر سابق، ص ١٠٩.



عدم تكافؤ في القوة السياسية والإقتصادية، ولكن على ما أطلق عليه هيمنة النظرية والأفكار البرجوازية، وتعني الهيمنة القيادة أو السيطرة، وتشير الهيمنة الأيديولوجية إلى قدرة الأفكار البرجوازية على إزاحة الآراء المنافسة لها، وأن تشكل في الواقع المعنى العام للعصر، ويلقي جرامشي الضوء على درجة تحذر الأيديولوجيا في كل مستوى من مستويات المجتمع في فنونه وآدابه، وفي نظامه التعليمي وإعلامه الجماهيري، وفي لغة الحياة اليومية والثقافة الشعبية، ويصر جرامشي على أن الهيمنة البرجوازية لا يمكن تحديها إلا على المستوى السياسي والفكري، وهو ما يعني عن طريق إقامة هيمنة بروليتارية منافسة تقوم على المبادئ والقيم والنظريات الإشتراكية، وشكلت قدرة الرأسمالية على تحقيق الإستقرار عن طريق صنع الشرعية إهتماماً خاصة لمدرسة فرانكفورت،

وهي مجموعة من الماركسيين الجدد الألمان أساساً الذين فروا من النازيين واستقروا بعد ذلك في الولايات المتحدة<sup>(١)</sup>.

يرى هربرت ماركيوز وهو أكثر أعضائها شهرة، بأن:

المجتمع الصناعي المتقدم اكتسب طابعاً شمولياً، من خلال قدرة أيديولوجية على التلاعب بالفكر وحرمان الآراء المعارضة من التعبير، وعن طريق خلق إحتياجات زائفة وتحويل الناس إلى مستهلكين شرهين، تستطيع المجتمعات الحديثة شل النقد من خلال إنتشار الوفرة الواسعة وغير المفيدة، ووفقاً لماركيوز فحتى التسامح الظاهري للرأسمالية الليبرالية يخدم غرضاً قمعياً من خلال خلق الإنطباع بوجود

---

(١) هيوود، أندرو، مصدر سابق: ص ١٧ - ١٨.

جدل ونقاش حر، وبذلك يخفى الدرجة التي يحدث بها  
التلقين والتحكم الأيديولوجي<sup>(١)</sup>.

وفي ستينيات القرن العشرين ظهر المفكر الماركسي  
الفرنسي ألتوسير الذي يعد ممثلاً للإتجاه البنائي في الفكر  
الماركسي، وهو يرى أن الأيديولوجيا لا تعبر عن العلاقة بين  
الناس وظروف وجودهم، ولكنها تعبر عن الطريقة التي  
يعيشون بها العلاقة بينهم وبين ظروف وجودهم، وبالتالي لا  
يشترط أن يكون التعبير صحيحاً أو زائفاً أو مشوهاً، ولكنه  
خليط من كل ذلك، وأن لها وجوداً مادياً يتجسد في  
مؤسسات وأجهزة أسماها أجهزة الدولة الأيديولوجية،  
فليست الأيديولوجية معرفة خاطئة، لأنها قبل كل شيء  
ليست معرفة ولأن وظيفتها العملية المجتمعية تفوق أهمية

---

(١) ماركوز، هيريت، ١٩٨٨م: الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي،

ط٣، منشورات دار الآداب- بيروت، ص ٢٥-٣٣.

وظيفتها النظرية المعرفية، ثم إن العلم لا يعدو أن يكون ممارسة نظرية في حين أن الأيديولوجية تشكل مستوى من مستويات كل تشكيلة إجتماعية، وبذلك نرى التوسير يقول: في كل مجتمع يوجد نشاط إقتصادي في الأساس وتنظيم سياسي وأشكال أيديولوجية، وبهذا تشكل الأيديولوجية جزءاً عضوياً في كل وحدة مجتمعية، ليست الأيديولوجية إذن ضلالاً وليست شيئاً زائداً عرضياً، بل هي بنية ضرورية للحياة التاريخية للمجتمعات. ومعنى ذلك أننا عند تحليلنا للواقع الإجتماعي يجب أن نأخذ في إعتبارنا الأيديولوجي كأحد مركبات هذا الواقع، فالأيديولوجية ليست شيئاً يضاف إلى الواقع، بل إنها من شروط العيش الضرورية<sup>(١)</sup>.

---

(١) علي، مصدر سابق، ص ١١٧ - ١١٩.

طورت الماركسية مفهوماً آخر للعلم في شكل إقتزان ليس مع التحليل النفسي الذي يهتم بالفرد، ولكن مع البنيوية التي تحصر بين هلالين أية إشارة إلى الذاتية، ويميل نوع الماركسية البنيوية التي طورت أساساً في فرنسا من قبل لوي ألتوسير إلى وضع كافة الإدعاءات الإنسانية في جانب الأيديولوجيا، ويجادل ألتوسير إن الادعاء بأن الذات هي التي تضفي المعنى على الواقع هو على وجه الدقة الوهم الأساسي، ويقوم ألتوسير جدله ضد إدعاء الذات في النسخة المثالية من الظاهرية والتي يمثل كتاب هوسيرل (تأملات ديكرتية) الأ نموذج لها، وبالمقارنة تعقد مع نقد ماركس للرأسمالية، حيث إنه لم يهاجم الرأسماليين لكنه حلل بنية رأس المال نفسه.

بالنسبة لألتوسير يجب أن لا ننظر في كتابات ماركس الشاب، لأن ماركس الناضج هو الذي يقدم الفكرة الرئيسية

للأيدولوجيا، لقد ظل ماركس الشاب أيدولوجياً، لأنه دافع عن الادعاء بأن الذات شخص فرد، ويحكم التوسير على مفهوم الإغتراب لدى ماركس الشاب بإعتباره المفهوم الأيدولوجي الذي يمثل على نحو نموذجي ما قبل الماركسية، لذا فإن كل كتابات ماركس الشاب تُعامل على أنها أيدولوجية حسب التوسير، ولا بد من رسم القطيعة أي الخط الفاصل بين الأيدولوجي والعلمي داخل كتابات ماركس نفسه، وهكذا توسع مفهوم الأيدولوجيا حتى صار قسماً من كتابات ماركس نفسه داخلاً ضمنه<sup>(١)</sup>.

يتخذ التوسير رفضاً للموقف المثالي من جهة، وللموقف الوضعي الإختباري من جهة أخرى، فبينما يوحد المثاليون بين الزوج (علم/ أيدولوجيا) والزوج (صواب/ خطأ)، وبينما يعتبر الموقف الوضعي - الإختباري أن الإنسان يقوم في

---

(١) ريكور، مصدر سابق، ص ٥٤.

عملية المعرفة بترجمة الواقع المباشر ونسخه، وأن هذه الترجمة قد تكون صائبة موافقة لما تخبر عنه فتشكل العلم، وقد تكون مغلوطة فتشكل الأيديولوجية، نجد أن صاحبنا لا يقبل المفهوم المثالي عن الأيديولوجية مثلما يرفض الموقف الوضعي - الإختباري من العلم، لذا فسنحاول فيما يلي أن نوضح هاتين القضيتين:

- ليست الأيديولوجية معرفة خاطئة.

- وليس العلم ترجمة للواقع المباشر.

فليست الأيديولوجية معرفة خاطئة لأنها قبل كل شيء ليست معرفة، ولأن وظيفتها العملية المجتمعية تفوق أهمية وظيفتها النظرية المعرفية، فالناس لا يعكسون ظروف عيشهم الواقعية ولا عالمهم الحقيقي في التمثلات الأيديولوجية، إنهم يعكسون قبل كل شيء علاقتهم بظروف عيشهم، إذ في هذه العلاقة توجد العلة التي بإمكانها أن تفسر التشويه

الوهمي للتمثل الأيديولوجي، إن كون هذه العلاقة خيالية وهمية هو ما يفسر التشويه، فكل أيديولوجيا تمثل في تشويهها الخيالي لا علاقات الإنتاج الموجودة، بل قبل كل شيء العلاقة الوهمية للأفراد بعلاقاتهم في الإنتاج والعلاقات التي تنتج عنها، وبذلك فإن الأيديولوجية لا تمثل منظومة العلاقات الواقعية التي تتحكم في وجود الأفراد، بل العلاقة الوهمية لهؤلاء الأفراد بالعلاقات الواقعية التي يعيشون في ظلها، فالأيديولوجية هي العالم الواقعي الذي يحقق فيه الوهم.

لذا يستغرب ألتوسير من أولئك الذي يتحدثون عن الأيديولوجية كما لو كانت وعياً أيديولوجياً، وهو يقول بهذا الصدد: جرت العادة بأن يقال عن الأيديولوجية أنها تنتمي لمنطقة الوعي، ولا ينبغي أن نغتر بهذه التسمية التي تحمل رواسب الإشكالية المثالية السابقة على ماركس، وفي الحقيقة



إن الأيديولوجية لا تربطها بالوعي علاقة كبيرة الشأن، هذا مع إفتراضنا أن للوعي معنى واحداً، إن الأيديولوجية لا شعورية في جوهرها حتى وإن قدمت لنا نفسها في شكل واعٍ، الأيديولوجية ميّالة إلى الغموض الواضح أكثر من ميلها إلى الوضوح، إنها تتشبث بالإعتقاد والثوق أكثر مما تنزع إلى النقد، إنها تحب الإمتلاء وتهاب الفراغ، فهي إذن ليست طريقاً إلى المعرفة ما دامت كل معرفة حقيقية تقوم دوماً ضد يقين البدايات وإمتلاء الفكر الدوغماتي، المعرفة الحقّة كما يقول باشلار تصحيح لأخطاء وتقوم لإعوجاج، وكل حقيقة جديدة تولد بالرغم من البداهة.

ثم إن العلم لا يعدو أن يكون ممارسة نظرية في حين أن الأيديولوجية تشكل مستوى من مستويات كل تشكيلة إجتماعية، ويقول ألتوسير: في كل مجتمع يوجد نشاط إقتصادي في الأساس وتنظيم سياسي وأشكال أيديولوجية

وهذا تشكل الأيديولوجية جزءاً عضوياً في كل وحدة مجتمعية، ليست الأيديولوجية إذن ضلالاً، لا شيئاً زائداً عرضياً بل هي بنية ضرورية للحياة التاريخية للمجتمعات. ومعنى ذلك أننا عند تحليلنا للواقع الاجتماعي يجب أن نأخذ في إعتبارنا الأيديولوجي كأحد مركبات هذا الواقع، فالأيديولوجية ليست شيئاً يضاف إلى الواقع بل إنها من شروط العيش الضرورية، كما أن الناس لا يعكسون في الأيديولوجية الواقع الاجتماعي وإنما الكيفية التي يحيون بها ذلك الواقع.

فإذا كانت الأيديولوجية إذن من المركبات الأساسية للمجتمع، وإذا كانت مستوى من مستويات كل تشكيلة إجتماعية، فلم مجرد خطأ وضباب ينقشع إذا ما حل محله الصواب العلمي، يقول آلان باديو: من الجلي أن الوظيفة العملية المجتمعية التي تتحكم في ذات ما لتحتل مكانتها، لا

يمكن أن تكون نقيضاً لإنتاج موضوع معرفة، لهذا فإن الأيديولوجية هي مستوى من مستويات التشكيلات الإجتماعية لا يمكن للعلم أن يقضي عليه. هذا ما جعل التوسير يعارض بشدة المفهوم المثالي للأيديولوجية الذي يوحد بين الزوج (خطأ/ صواب)، والزوج (علم/ أيديولوجية)<sup>(١)</sup>، يقول أحد أتباع التوسير: ليس هناك كوجيطو أيديولوجي (أنا أيديولوجي)، بل هناك دوماً إتهام يصاغ بصيغة مخاطب: أنت أيديولوجي<sup>(٢)</sup>.

يجري القول عادة بأن الأيديولوجية من وجهة نظر التوسير تنتمي إلى منطقة الوعي، علينا ألاّ ننخدع بهذه التسمية التي تظل حاملة لآثار الإشكالية المثالية السابقة

---

(١) العاللي، عبد السلام بنعبد، بدون تاريخ النشر: الميتافيزيقا، العلم والأيديولوجيا،

دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت، ص ٩٣ - ٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

على ماركس، إن الأيديولوجية في جوهرها لا واعية حتى وإن  
تبدت لنا (كما هو الأمر في الفلسفة قبل الماركسية) في  
شكل واع، صحيح أن الأيديولوجية نسق من التمثلات،  
ولكن هذه التمثلات في أغلب الأحيان لا تمت إلى الوعي  
بصلة، إنها تكون في معظم الأحوال صوراً وأحياناً تصورات،  
ولكنها لا تفرض نفسها على الأغلبية الساحقة من البشر  
إلا كبنيات قبل كل شيء ودون أن تمر بوعيهم، إن هذه  
التمثلات هي عبارة عن موضوعات ثقافية تدرك وتقبل  
وتعاني فتؤثر على البشر وفق عملية يجهلون مدلولها.

تتعلق الأيديولوجية إذن بعلاقة المعاناة التي تربط الناس  
بعالمهم، وإن هذه العلاقة التي لا تظهر واعية إلا بشرط أن  
تكون غير واعية، يظهر أنها بنفس الكيفية لا تظهر بسيطة  
إلا بشرط أن تكون مركبة، وأنها ليست علاقة بسيطة وإنما  
علاقة بالعلاقات، إنها علاقة من الدرجة الثانية، فالناس لا

يعبرون في الأيديولوجية عن علاقاتهم مع ظروف عيشهم، بل عن الكيفية التي يعيشون بها علاقاتهم مع تلك الظروف، الشيء الذي يفترض في ذات الوقت، علاقة حقيقية وعلاقة معاناة وخيال ووهم، فحينئذٍ تكون الأيديولوجية هي التعبير عن العلاقة الناس بعالمهم، أي بوحدة تلتحم فيها علاقتهم الحقيقية بظروف عيشهم مع علاقتهم الوهمية بتلك الظروف، ففي الأيديولوجية توضع العلاقة الحقيقية داخل العلاقة الوهمية: تلك العلاقة التي تعبر عن إرادة أو أمل وحنين أكثر مما تصف واقعاً معيناً<sup>(١)</sup>.

يقول ألتوسير: بأنه داخل الأيديولوجية يتمثل الناس الظروف الواقعية لوجودهم بشكل خيالي. ولكن لماذا يحتاج

---

(١) سبيلا والعالى، محمد وعبد السلام بنعبد، ٢٠٠٦م: الإيديولوجيا، دار تونقال

للنشر - دار البيضاء / المغرب، ص ٩ - ١٠.

الناس لإستبدال الظروف الواقعية لوجودهم بظروف  
خيالية؟<sup>(١)</sup>:

**الإجابة الأولى:** الخاصة بالقرن الثامن عشر تقدم حلاً  
بسيطاً وهي: أن الخطأ يقع على القساوسة أو الطغاة،  
حيث اختلقوا أكاذيب جميلة من أجل أن يطيع الناس  
القساوسة أو الطغاة معتقدين أنهم هكذا يطيعون الله،  
متحالفين في الخداع، القساوسة يخدمون الطغاة والعكس  
صحيح، حسب الأوضاع السياسية التي يقول بها المنظريون  
هناك إذن سبب للإستبدال الخيالي للظروف الواقعية  
للوجود: هناك السبب هو وجود قلة من الناس الوقيحين  
الذين يرتكزون في سيطرتهم وإستغلالهم للشعب على تصور

---

(١) التوسير، لويس، ١٩٧٠م: الأيديولوجية والأجهزة الأيديولوجية للدولة، ترجمة:

عايدة لطفي، ج٢، مجلة الفكر الفرنسية- العدد ١٥١، ص ٢٧ - ٢٨.

خاطئ للعالم تخيلوه حتى يستعيدوا الأذهان عن طريق  
السيطرة على مخيلة الشعب.

**الإجابة الثانية:** الخاصة بفيورباخ، والتي أعاد ماركس  
إستخدامها بحذافيرها في مؤلفات شبابه، والتي تعتبر أكثر  
عمقاً، وهي كالأولى خاطئة أيضاً، إنها تبحث وتجد هي  
الأخرى سبباً للتبديل والتشويه الخيالي للظروف الواقعية  
لوجود البشر، بإختصار سبباً للإغتراب في الخيال الذي  
يقدمه هذا التصور وجود البشر، هذا السبب هذه المرة لا  
يمكن لا في القساوسة ولا في الطغاة ولا في خيالهم الخصب  
والخيال السليبي لضحاياهم، هذا السبب هو الإغتراب المادي  
المسيطر على ظروف وجود البشر أنفسهم، هكذا يدافع  
ماركس عن القضية اليهودية، فضلاً عن الفكرة الفيورباخية  
القائلة بأن الناس يقيمون تصوراً إغترابياً [خيالياً] لظروف  
وجودهم، لأن هذه الظروف يحكمها جوهر مجتمع تخريبي.

وفي مكان آخر يقول ألتوسير: إلا أنني أكره هنا أطروحة  
قدمتها من قبل: ما يتصوره البشر في الأيديولوجية ليس  
الظروف الواقعية لوجودهم وعالمهم الواقعي، ولكنه قبل كل  
شيء هو تصور لعلاقتهم بهذه الظروف، وهي العلاقة التي  
نجدها داخل أي تصور أيديولوجي، ولهذا فهو بالتالي تصور  
خيالي للعالم الواقعي، وداخل هذه العلاقة بعينها يكمن  
(السبب) الذي تتمكن بواسطته من إدراك التشويه الخيالي  
الحاصل في التصور الأيديولوجي للعالم الواقعي.

إذا تركنا مسألة (السبب) هذه جانباً وأكملنا الأطروحة  
القائلة بأن الطبيعة الخيالية لهذه العلاقة هي أساس أي  
تشويه خيالي ملحوظ في أية أيديولوجية، ذلك إذا لم نكن  
واقعيين تحت تأثير الإعتقاد بصحة هذه الأيديولوجية، نقول  
باللغة الماركسية أنه إذا كان صحيحاً أن تصور الظروف  
الفعلية لوجود الأفراد الشاغلين لوظائف عاملين إنتاج،



إستغلال، قمع، أيديولوجية وتطبيق علمي، يكشف أولاً وأخيراً عن علاقات الإنتاج والعلاقات المشتقة من علاقات الإنتاج، يمكننا أن نقول: كل أيديولوجية تمثل في تشوهها الذي لا بد وأن يكون خيالياً لا علاقات الإنتاج القائمة (والعلاقات الأخرى المشتقة منها) بل قبل كل شيء علاقة الأفراد (الخيالية) بعلاقات الإنتاج والعلاقات المشتقة منها، وهنا في الأيديولوجية إذن تقديم لا لنظام العلاقات الفعلية التي تحكم وجود الأفراد بل علاقة هؤلاء الأفراد الخيالية بالعلاقات الواقعية التي يعيشون في ظلها.

وبناءً على ما سبق يمكن أن نؤيد مقولة ماكس فيبر: إنه في جماعة معطاة، ما أن يظهر التفريق بين جماعة حاكمة وبقية أفراد المجموعة، حتى تستحوذ الجماعة الحاكمة على كل من قوة القيادة وقوة تنفيذ القانون بإستخدام القوة، هنا تدخل الأيديولوجيا، فليس من نظام قيادة حتى أكثر

الأنظمة وحشية يحكم بالقوة وبالهيمنة فقط، لا يطلب نظام القيادة خضوعنا الجسدي فقط، بل كذلك موافقتنا وتعاوننا، إذن يسعى كل نظام قيادة لا إلى إسناد حكمه على الهيمنة فقط، بل يريد أيضاً أن تتم الموافقة على قوته لأن سلطته شرعية، ودور الأيديولوجيا هو إضفاء الشرعية على هذه السلطة، بكلمات أدق بينما تخدم الأيديولوجيا بوصفها شفرة التأويل التي تضمن الدمج، فإنها تفعل ذلك من خلال تبرير نظام السلطة القائم، ويتوصل دور الأيديولوجيا بوصفها قوة تضيف الشرعية كما أظهر فيبر، لعدم وجود نظام شرعية عقلاني على نحو مطلق<sup>(١)</sup>.

ليست وظيفة الأيديولوجية أن تعطي معرفة صائبة عن البنية الاجتماعية، وإنما وظيفتها أن تحشر الناس ضمن نشاطاتهم العلمية، وكيف يتم ذلك؟، أن وظيفة الأيديولوجية

---

(١) ريكور، مصدر سابق، ص ٦١.

على عكس العلم هي أن تضفي على التناقضات الواقعية طابعاً غيبياً، وأن تشيد على مستوى خيالي كلاماً متناسقاً يصلح كأفق لما يعانیه الناس، وذلك بتعديل تماثلهم لعلاقات تشكيلية ما، فالأيدولوجية نسيج كل تشكيلة إجتماعية وهي الإسمنت الذي يشد أحجار المجتمع بعضها إلى بعض، إنها إنتاج لعلاقات الإنتاج، فهناك ضرورة لإنتاج ظروف الإنتاج المادية، إن إنتاج قوة العمل لا يقتضي توالد الكفاءات العاملة فحسب، بل يتطلب كذلك توالد الخضوع لنظام معين، أي توالد الخضوع للأيدولوجية السائدة، فالأيدولوجية هي الميكانيزم المولد للفروق الضرورية لسير علاقات الإنتاج، والمحافظ على تلك الفروق، وبممكننا أن نقول إذن إن وظيفة الأيدولوجية هي أن تجعل المنتجين يعترفون بمكانتهم داخل عملية الإنتاج<sup>(١)</sup>.

---

(١) العالبي، مصدر سابق، ص ٩٨ - ٩٩.

تصبح المعرفة أيديولوجية كلما حاولت الإلتصاق بالواقع دون إحداث تغيير معرفي فيه، فالعلم إذ ينتج المعرفة الموضوعية يعلن الحرب على الأوهام الأيديولوجية، ويحاول تعرية ميكانيزمات المستوى الأيديولوجي، ولكنه لا يستطيع القضاء على تمثلات يجد الناس فيها معايير سلوكهم، تمثلات تضمن الترابط الإجتماعي وتتجسد عند مختلف المجتمعات في شكل قواعد ومبادئ أخلاقية وعلاقات أسروية وممارسة فنية، وذلك أن التمثلات التي تشكل الأيديولوجية ليست زائدة، فهي التي تضمن وحدة التشكيلة الإجتماعية<sup>(١)</sup>.

ليس العلم هو الذي ينعت الماضي قبل العلمي، بأنه ماض أيديولوجي، إن المعرفة العلمية تكتفي بوصف ذلك الماضي بالضلال والخطأ، ولفضح هذا الماضي الخاطيء وكشف غلاف الأيديولوجي لا بد من تدخل طرف ثالث

---

(١) العالبي، مصدر سابق، ص ١٠٢.

بين العلم والأيدولوجيا، ذلك الطرف هو الممارسة الفلسفية، فهذه الممارسة هي التي تبين أن أخطاء الماضي كانت تمثلات أيدولوجية تدّعي الحقيقة، فعندما يتكون الفكر العلمي كعلم فإنه يكشف أن المعارف السابقة كانت معارف خاطئة لا أيدولوجية، والفلسفة هي التي تكشف عن هذه الأخطاء بوصفها أخطاء أيدولوجية ميتافيزيقية عند كونت، وأيدولوجية عند ماركس، وتحليلية عند باشلار، ووضعية جديدة عند ألتوسير، إن التفكير الفلسفي النقدي الذي ينصب حول حلول الفكر العلمي هو الذي يكشف العلاقات الجدلية لهذا الفكر مع الأيدولوجية وليس العلم ذاته، فالعلم يهدم الأخطاء الأيدولوجية دون أن يفكر فيها كحواجز إبستمولوجية، وهكذا فالتأمل الفلسفي هو نافذة ثالثة نستطيع من خلالها وحدها أن نميط اللثام عن العلاقات الجدلية بين العلمي والأيدولوجي.

وعليه فإن الأيديولوجية لا تقدم نفسها كأيديولوجية،  
والعلم لا يستطيع أن يكشف عن ماضيه كماض  
أيديولوجي، بل إنه يعجز عن التخلص من ذلك الماضي ما  
دامت الأيديولوجية تصاحبه، لذا فلا بد من تدخل الطرف  
الثالث الذي يقوم بوظيفة النقد، فكأن المصارع الحقيقي  
للأيديولوجية ليس هو العلم، وكأن خصمها النظري  
الأساسي هو الفلسفة من حيث أن هذه تتدخل كفكر  
يستعمل الكشوف العلمية ليحارب الأوهام الأيديولوجية<sup>(١)</sup>.  
فالأيديولوجية ليست عنده إنعكاساً للعلاقات الحقيقية،  
بل هي إنعكاس للوهم الاجتماعي للأفراد، إنها صورة عن  
الصورة، وهي لا تملك أي دلالة حقيقية، وبهذا فيأمكنها أن  
تعمل كآلية منغلقة على ذاتها وأن تقوم ككل ضد العلم، إن  
التفكير يصبح أيديولوجية عندما ينفصل عن القوى المادية،

---

(١) العالبي، مصدر سابق، ص ١٠٥.

فيعتقد أن هناك باطنية تحدده وتعمل في إستقلال عن تلك القوى المادية، فالوهم والوعي الزائف يتعلقان بشكل التمثلات لا بمحتواها (١).

يقوم الأيديولوجيون برسم صورة لعالم جديد، وتستند هذه الصورة إلى تفسيرهم للعالم كله، هذا التفسير الذي يدعون له حقيقة مطلقة ويستمد منه الإنسان معايير وقواعد للسلوك في حياته اليومية، فالمرء الذي يعتنق إيديولوجية ما يعثر فيها على مرساته ومرتكزه، مثلما أنها تزوده بالمعرفة واليقين عن مغزى حياته ومعناها وتمنحه طمأنينة تشكل الحياة وتشيد صرحها، هنا يقع مغزى الأيديولوجية وتكمن أهميتها بالنسبة للحياة العملية، وتعتمد الأيديولوجيات إلى تسخير العلوم لخدمتها، فتأخذ عنها الحجج الصالحة للإستعمال وتستدعي النتائج العلمية شهوداً على صحة حقائقها الإيمانية الشاملة

---

(١) العالبي، مصدر سابق، ص ١٠٨ - ١٠٩.

لكل شيء، وهكذا يصبح العلم لديها دفاعاً تبريراً عن العقيدة، لكن الأيديولوجيات تحاول أيضاً ممارسة النفوذ والتأثير على العلوم بالذات، فتطرح الأسئلة العلمية وتبحثها من زاوية إفتراضاتها الجامدة، وبذلك تنفذ إلى التفكير العلمي وتخلله بتصوراتها الأيديولوجية، وعن طريق تنظيماتها تقوم الأيديولوجيات بتعزيز هذا النفوذ الذي أخذت تمارسه على العلوم<sup>(١)</sup>.

ويرى فوكو بأن المعرفة ليست تلك الورشة الإستمولوجية التي تحتفي بمجرد ما يكتمل العلم الذي يتطلب بناؤه وجودها، والعلم أو ما يعتبر علماً يتخذ موقعه داخل حقل معرفة، حيث يلعب دوره وهو دور يتغير حسب تغيير التشكيلات الخطائية وينقلب بإنقلابها، فما كان يعتبر في الفترة الكلاسيكية معرفة طبية بأمراض الروح، إحتل مكانه

---

(١) سبيلا والعالى، مصدر سابق، ص ١٥.



جد محدودة داخل معرفة الحق، كما ليست مسألة الأيديولوجيا المطروحة على العلم مسألة مواقف أو ممارسات تعكسها بكيفية واعية بهذا القدر أو ذاك، ليست أيضاً مسألة توظيفها المحتمل أو سوء الإستخدام الذي قد تتعرض له، بل مسألة وجودها كممارسة خطائية تمارس نشاطها بين ممارسات أخرى.

ونستطيع القول إجمالاً ودون إعتبار، وبصرف النظر عن كل وساطة أو خصوصية نوعية، إن الإقتصاد السياسي كان له دور في المجتمع الرأسمالي، وأنه كان يخدم مصالح الطبقة البورجوازية، وأن هذه الأخيرة هي التي أنشأتها خدمة لأغراضها، وأن آثار أصوله وملابسات نشأته لا زالت عالقة به، تطبع بقوة مفاهيمه وبنائه المنطقي، على أن كل محاولة للقيام بوصف دقيق أكثر للعلائق الموجودة بين البنية الإبستمولوجية للإقتصاد، ووظيفته الأيديولوجية لا بد لها من

أن تمر بتحليل التشكيلة الخطائية التي أفسحت المجال  
لظهوره، ومجموع الموضوعات والمفاهيم والإختبارات النظرية  
التي كان عليه أن ينشئها ويضفي عليها سمة النسق  
والمنظومة، وأن تبين كيف أن الممارسة الخطائية التي أفسحت  
المجال هي وممارسات أخرى ذات طابع خطائي، لظهور  
وضعية من ذلك النوع، هي بدورها ذات طابع سياسي  
وإقتصادي<sup>(١)</sup>.

---

(١) فوكو، ميشال، ١٩٨٧م: **حفريات المعرفة**، ترجمة: سالم يفوت، ط٢، المركز

الثقافي العربي- بيروت، ص ١٧٠ - ١٧١.

## الأيدولوجيا الإقتصادية

إن الأيدولوجية موجودة بقدر أو بآخر في كافة العلوم بما فيها العلوم الطبيعية، فكل العلوم تعالج مصالح الناس بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، كل ما هنالك أنها مباشرة وتكون صارخة في ساحات العلوم الإجتماعية، لقد أصبح العلم ذا طابع إجتماعي، ونعني بذلك الدلالة الإجتماعية للعلم ومسؤولية العلماء، كما نعني به حجم منتجات العمل

ونفقاته من الموارد المادية والبشرية مما يضاعف من تبعية العلم للمجتمع<sup>(١)</sup>.

الأيدولوجيا الإقتصادية جزء من البناء الفوقي، وهي بهذه الصفة تعكس في النهاية العلاقات الإقتصادية، ففي مجتمع من الطبقات المتطاحنة يتطابق الصراع الأيدولوجي مع الصراع الطبقي، وقد تكون الأيدولوجيا علمية، وقد تكون غير علمية: أي قد تكون إنعكاساً صادقاً أو زائفاً، بينما مصالح الطبقات التقدمية الثورية تساعد على تشكل أيدولوجيا علمية حقاً، تعبر عن المصالح الحيوية للطبقة العاملة والأغلبية الساحقة من الإنسانية المكافحة من أجل السلام والحرية والتقدم، ويحدد الإقتصاد تطور الأيدولوجيا، ولكن للأيدولوجيا إستقلالاً نسبياً، وتعبر عن هذا إستحالة

---

(١) علي، حسين، ٢٠١١م: العلم والأيدولوجيا بين الإطلاق والنسبية، التنوير

للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ص ١٠١.

التفسير المباشر لمضمون الأيديولوجية بواسطة علم الإقتصاد، كما يعبر عنه عدم تساوي التطور الإقتصادي والأيديولوجي، وبالإضافة إلى هذا فإن الإستقلال النسبي للايديولوجيا يظهر بصورة أوضح في عمل القوانين الداخلية للتطور الأيديولوجي، وهي قوانين لا يمكن ردها مباشرة إلى علم الإقتصاد، في المجالات الأيديولوجية الأكثر بعداً عن الأساس الإقتصادي، وتفسر الإستقلال النسبي للايديولوجية حقيقة أن التطور الأيديولوجي يتأثر بطريقة غير مباشرة بعدد من العوامل التي تتجاوز النطاق الإقتصادي: الإستمرارية الداخلية في تطور الأيديولوجيا والدور الشخصي للايديولوجيين الأفراد، والتاثير المتبادل للأشكال المختلفة للايديولوجية<sup>(١)</sup>.

---

(١) لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين، بدون تاريخ النشر: الموسوعة

الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت، ص ٦٨.

تسأل شومبيتر: هل يعد تاريخ علم الاقتصاد تاريخاً  
للأيدولوجيا؟، فمن وجهة نظره أنه من الصحيح عندما  
نحاول تفسير المواقف البشرية وبخاصة مواقف الناس البعيدين  
عنا من حيث الزمن أو الحضارة، أن نخاطر بإساءة فهمهم،  
ليس فقط حينما نسقط مواقفنا محل مواقفهم بشكل فج،  
بل أيضاً حتى عندما نبذل أقصى ما نستطيع للنفوذ إلى  
الطريقة التي تؤدي بها عقولهم وظيفتها، وما يفاقم الأمر أن  
الباحث نفسه نتاج بيئة إجتماعية معينة، ونتاج موقعه  
الخاص ضمن هذه البيئة، تدفعه لرؤية أشياء معينة وليس  
غيرها، ولرؤيتها بصورة معينة وحتى هذا ليس كل شيء،  
فعوامل البيئة قد تخلق لدى الباحث توقفاً خفياً لرؤية الأشياء  
بصورة معينة، وهذا يستدعي الإنتباه إلى مشكلة التحيز  
الأيدولوجي في التحليل الإقتصادي، وبالمثل فإن زعيم أي

حزب غير حزبنا دجال، وبلدنا بلد الأبطال بينما البلد الذي نعاده بلد متوحشين.

ويرى شومبيتر بأن إعتقاد مانهايم بأن الوهم الأيديولوجي يمثل مصير البشرية المشترك، بيد أنه آمن بوجود مفكرين مجردين يعومون في الفضاء بحرية وينعمون بإمتياز الإستثناء من هذا المصير، ومن الناحية العملية فإن كل فرد هو ضحية للوهم الأيديولوجي بإستثناء المفكر الثوري المعاصر الذي يقف حقاً على صخرة الحقيقة، والحاكم بكل شؤون البشر دون تحيز، ورغم هذا فإننا لا نستطيع أن نكون مع مانهايم وهو يرفع سلم نجاته، لأننا قد قبلنا مذهب شمولية التحيز الأيديولوجي قبولاً كلياً، وبالتالي لا نستطيع التسليم بوجود

مجموعات متحررة منه، ذلك لأنها أيضاً تمتلك نظامها الخاص بها من الأوهام<sup>(١)</sup>.

تعتبر مسألة الأيديولوجيا وتأثيرها في الفكر الإقتصادي أكثر القضايا إثارة للجدل في مواجهة علم الإقتصاد، وقد برزت هذه القضية بقوة بعدما تبلور علم الإقتصاد كعلم مستقل ممثلاً في فكر مدرسة الطبيعيين الفرنسية الذي تبناه وطوره رواد المدرسة الكلاسيكية، ويتشعب الجدل حول الجذور والمحتوى الأيديولوجي في علم الإقتصاد، سواء في الفكر الإقتصادي بالمفهوم الشامل أو في التحليل الإقتصادي تحديداً، ولا تثير الأيديولوجيا قلقاً كبيراً لدى المشتغلين بالعلوم الطبيعية نظراً لما تتمتع به هذه العلوم من درجة الدقة في النتائج الرقمية المحددة، وسهولة إكتشاف

---

(١) شومبيتر، جوزيف أ.، ٢٠٠٥م: تاريخ التحليل الإقتصادي، ترجمة: حسن

عبدالله بدر، م١، المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة، ص٦٦-٦٧، ٧٠-٧١.



التحيز وتصحيحه، وربما كان هذا أحد الأسباب التي تجعل الإقتصاديين أكثر المشتغلين بالعلوم الإجتماعية إنكاراً وتجاهلاً لمشكلة الأيديولوجيا، إذ أن كثيراً منهم ينظر إلى علم الإقتصاد على أنه أكثر دقة وضبطاً لأنه يستخدم الأساليب الكمية أكثر من أي علم إجتماعي آخر.

ويتسع الخلاف بين الإقتصاديين على مسألة الأيديولوجيا من النقيض إلى النقيض، فمنهم من ينكر أي تأثير لها على علم الإقتصاد، ومنهم من يقول بأن النظرية الإقتصادية تنوء بأوزار أيديولوجية لا سبيل إلى الخلاص منها، فالبعض ينكر أن النظرية الإقتصادية مختلطة بالأيديولوجيا أو أنها على الأقل موجهة بقوة أيديولوجية، والبعض يرى أن النظرية الإقتصادية تحمل أوزاراً قيمة وأيديولوجية، آخرون يعتقدون أن الإقتصاديين يجب أن ينتبهوا من الوقوع في شرك الأيديولوجيا، ولكن في نفس الوقت يجب ألا يصبح أكثر

همهم تجنب الوقوع فيها، وهناك آخرون مهتمون بإيجاد قاعدة أيديولوجية مناسبة للنظرية الإقتصادية، ويتداخل مع هذه المواقف طيف واسع من الآراء والإجتهدات والتخرجات لهذا الموضوع الشائك المتمثل بمعضلة التداخل بين الأيديولوجيا وعلم الإقتصاد<sup>(١)</sup>.

إن أول من أشهر قضية تأثير الأيديولوجيا في علم الإقتصاد هو كارل ماركس، فقد أسبغ على الأيديولوجيا معنى إزدرائياً ذمياً، وأنطلق يهاجم علم الإقتصاد السائد في عصره وهو إقتصاد المدرسة الكلاسيكية، وقد كان ذلك قبل نصف قرن من شيوع إستخدام مفهوم الأيديولوجيا في العلوم الإجتماعية، وخلاصة هجوم ماركس على الإقتصاد الكلاسيكي هو أنه يقول بأن هذا ليس علماً وإنما هو

---

(١) أنظر: السديس، د. عبد العزيز بن علي، ١٩٩٨م: التحيز الأيديولوجي في

الفكر والتحليل الإقتصادي الغربي، جامعة الملك سعود- الرياض، ص ٣٧- ٣٨.

أيدولوجيا الطبقة المسيطرة، فماركس يرى أن الأفكار هي نتاج لطبيعة العلاقات المادية السائدة في المجتمع في حقبة زمنية معينة، وأن هذه الأفكار تشكل في مجموعها الأيدولوجيا السائدة، وأن الأفكار الإقتصادية في المجتمع تعكس مصالح الطبقة المهيمنة في تلك المرحلة التاريخية، وهذا يعني أن الفكر الإقتصادي يمثل أيدولوجيا في أي مجتمع طبقي، وأن هذه الأيدولوجية لا يمكن التخلص منها إلا بالتخلص من النظام الطبقي نفسه، أي قيام مجتمع البروليتاريا الذي تذوب فيه جميع الطبقات، وهنا فقط تزول الأيدولوجيات وتسود العلم.

ولكن الهجوم الماركسي خلافاً للإعتقاد الشائع على علم الإقتصاد السائد في عصره لم يكن بغرض إلغاء علم الإقتصاد، أو تصفية جميع النتاج الفكري الإقتصادي للطبقيين والكلاسيك، ولكنه يرمي إلى كشف الأساس

الأيدولوجي الذي حرف مسيرة التطور العلمي الإقتصادي لدى الطبيعيين ومن جاء بعدهم، فماركس لا ينكر أن بعض تحليلات الطبيعيين وآدم سميث وريكاردو أنها تحتوي على علم حقيقي، ولكنه يرى أن الطبقة الرأسمالية قد حالت دون تطور الجانب العلمي في الإقتصاد، ويشكل الفكر الإقتصادي الرأسمالي لماركس صورة من صور التشويه الأيدولوجي الذي يعتبر أن الرأسمالية هي النظام الإقتصادي الأمثل الذي يصلح لجميع المجتمعات وكل الأزمنة، وهذا ما يرفضه ماركس رفضاً قاطعاً إنطلاقاً من أن النظام الإقتصادي الرأسمالي هو نظام عابر كغيره من الأنظمة الإقتصادية المتعددة التي مرت بها المجتمعات البشرية، ولذا فإن ماركس ينفي الصفة الأطلاقية التي يدعيها مفكرو الإقتصاد الرأسمالي على هذا النظام، أي أن ماركس يرفض مقولة أن النظام

الرأسمالي هو النظام الطبيعي الصالح لكل زمان ولكل مكان<sup>(١)</sup>.

وقد استمر الجدل حول علاقة علم الإقتصاد بالأيدولوجيا من بعد ماركس، ولكن الغالب على الجدل ليس حول وجود الأيدولوجيا أو عدم وجودها في النظرية الإقتصادية من حيث المبدأ، ولكن الجدل يتركز على مدى تأثيرها في تشويه علم الإقتصاد وتزييفه، وعلى إمكانية التخلص منها جزئياً أو كلياً، وعلى كيفية التخلص منها وتجنب آثارها، وكان شومبيتر من أوائل من فصل بشكل دقيق في بحث مسألة الأيدولوجيا في علم الإقتصاد، بحيث أصبحت آراؤه تتردد في ثنايا معظم الدراسات اللاحقة المتعلقة بأثر الأيدولوجيات في الفكر الإقتصادي والتحليل الإقتصادي، كما أن شومبيتر جمع أفكاره في هذا الموضوع

---

(١) أنظر: السديس، مصدر سابق، ص ٣٩ - ٤٠.

لتكون جزءاً مهماً من منهجه في كتابه الضخم (تاريخ التحليل الإقتصادي)، وهو ما جعل شومبيتر يبدو أول وأهم من حلل موضوع الأيديولوجيا في الفكر الإقتصادي، فلا تخلو مناقشة لهذا الموضوع دون أن تكون بعض آراء شومبيتر حاضرة، وقد يكون أحد الأسباب هو وسطية شومبيتر حيث أنه لا يستبعد ظهور علم إقتصاد نقى من الأيديولوجيا.

ورغم إعجاب شومبيتر بكثير من أفكار ماركس وإقراره بوجود الأيديولوجيا في النظرية الإقتصادية، إلا أنه انتقد موقف ماركس في طرحه لقضية الأيديولوجيا، فقال أن ماركس في هذه يرى القشة في عيون الآخرين ولا يرى الخشب في عينه، فهو يرى الأيديولوجيا في كل الطبقات ولا يراها في طبقة البروليتاريا، لقد كان ماركس أعمى عن العناصر الأيديولوجية التي وردت في طرحه، فإننا لا نستطيع

أن نقول أن فكر الآخرين هو أيديولوجيا، وأنا نقف وحدنا على صخرة الحقيقة المطلقة، فالأيديولوجيات العمالية ليست أفضل أو أسوأ من غيرها<sup>(١)</sup>.

وعليه يمكن تقسيم أهم الإتجاهات التي تناقش موضوع الأيديولوجيا في علم الإقتصاد إلى ثلاث إتجاهات:

١- الإتجاه الأول: يقر هذا الإتجاه بوجود الأيديولوجيا

في علم الإقتصاد، ويعتقد بإمكانية تنقيحه وتخليصه من كثير من العناصر الأيديولوجية وبالتالي فإن الإقتصاد علم بمعنى من المعاني، نافع يؤدي وظيفة ضرورية لا غنى عنها، كما يقر هذا الإتجاه بتداخل الأيديولوجيا مع النظرية الإقتصادية، ولكنه يرى أن التخلص من معظم العناصر الأيديولوجية أمر ممكن، وأن الإقتصاد علم يتقدم تقدماً لا يمكن إنكاره، وأنه

---

(١) شومبيتر، م ١، مصدر سابق: ص ٦٨ - ٦٩.

سوف يواصل تقدمه، ومن أهم رواد هذا الإتجاه شومبيتر، الذي ينطلق في مناقشة لتأثير الأيديولوجيا في علم الإقتصاد من إيمانه بأن أهم عاملين إجتماعيين يؤثران في العلم هما: الأيديولوجيا والمدرسة (أو تيار فكري معين)، ويتكون البحث العلمي في نظره بصفة عامة من مرحلتين<sup>(١)</sup>:

أ- الرؤية

ب- بناء النموذج التحليلي

ويمثل موضوع الرؤية دوراً مركزياً في فكر شومبيتر، فهي تؤثر على بناء النموذج من ناحية، ومن ناحية أخرى أكثر أهمية في مجال بحثنا هنا هو أن الأيديولوجيا كعنصر علمي يدخل في مرحلة صياغة الرؤية، وأن الرؤية لا يمكن فصلها

---

(١) شومبيتر، م ١، مصدر سابق: ص ٧١ - ٨٥.



عن العلم، فهي مكون أساسي من مكوناته، أما الأيديولوجيا فإنه يمكن فصلها عن العلم من حيث المبدأ. والأيديولوجيا ليست مجرد أكاذيب، ولكنها تعبيرات صادقة عما يعتقد الشخص، ومع أنها يمكن أن تكون أوهاماً إلا أنها قد تحتوي على حقائق يمكن إثباتها بدقة تامة، وبما أن الأيديولوجيا تعتبر رؤية تسبق التحليل أثناء العملية العلمية فإنها تتطلب مسبقاً للبحث العلمي، ولذا فإن الأيديولوجيا جديرة بالإختيار والفحص بالضوابط والإجراءات العلمية المختلفة، ويعتبر شومبيتر أن الضوابط المصممة لعزل وإستبعاد الأيديولوجيا ليست فاعلة دائماً، وأنها قد تستعصي على الضبط وتشكل خطراً على العلم، والسبب هو أن للأيديولوجيا دوراً أساسياً في صياغة الرؤية المسبقة، وأن الرؤية تحتوي على صور الأشياء كما نراها، ولكن عندما يوجد حافز أو دافع لرؤية الأشياء بصورة معينة

فإنه يصعب تمييزها عن الصورة التي نرغب أن تكون عليه، وهذا لا يعني أنه لا يوجد حقائق وضوابط إجرائية في العلم خالية من الأيديولوجيا.

لذا فإن شومبيتر يعتقد بأن المجال العلمي الذي يمكن تحصيله من التحيز الأيديولوجي محدود، ويعمل ذلك بأنه كلما كانت نظرتنا للأشياء أساسية كلما إزدادت الصعوبة أمام الضوابط العلمية في المقارنة والتقييم، ومثاله الشهير هو نظرية القيمة، فهناك نظرية قيمة العمل والنظرية الشخصية للقيمة، فكل من النظريتين تنتقد الأخرى إنطلاقاً من ضوابطها الإجرائية الخاصة بها هي وإنطلاقاً من قدرتها على حل مشاكلها التي تختارها هي، ولذلك فإن هناك نظريتين للقيمة ولكل منهما رؤاها وأيديولوجيتها، ومن تعقيدات مسألة الأيديولوجيا إمكانية ولادة أيديولوجيا كانت قد

ماتت لأن الأيديولوجيا قد تنبعث مراراً وتكراراً كلما حاول العلماء صياغة رؤيتهم.

ويرى شومبيتر أن الأيديولوجيا ليست هي الخطر الوحيد الذي يهدد التحليل الإقتصادي، بل يوجد خطرين آخرين يجب التنبه لهما، لأنه يسهل الخلط بينهما وتداخلهما مع التحيز الأيديولوجي، أحد هذين الخطرين هو إمكانية العبث والتلاعب بالحقائق والتلاعب بضوابط الإجراءات البحثية من قبل ما سماه بالداعية أو المحامي، والدعوة أو المرافعة ليست مشابهة للتحليل الذي أفسدته الأيديولوجيا، والخطر الثاني هو الأحكام القيمة التي دأب الإقتصاديون إعطاءها للعمليات التي يشتغلون بها ويلاحظونها والتوصيات السياسية التي يصدرونها، هذه الأحكام القيمة الإقتصادية قد تكشف أيديولوجيتهم ولكنها ليست أيديولوجيتهم، ورغم كل ما سبق يتنبأ شومبيتر بانتصار العلم على

الأيدولوجيا بسبب الإتجاه إلى العقلانية، فالعقلانية في نظره تطرد الأيدولوجيا من العلم كما أنها تطرد الأيدولوجيا من المجتمع، وأن الوقت سوف يأتي حيث تتوحد التفضيلات الاجتماعية ويتم الوصول إليها بالطرق العلمية، وخلاصة رأي شومبيتر هي أن علم الإقتصاد كغيره من العلوم الإجتماعية معرض دائماً لخطر التحيز الأيدولوجي وأشكال التحيزات الأخرى، وأن الضوابط العلمية يمكن أن تنجح في عزل كثير من العناصر الأيدولوجية وتنقية النظرية الإقتصادية منها.

ومن الأسماء المعروفة في هذا الإتجاه أيضاً بعد شومبيتر هي جون روبنسون، التي تجزم بأن: كل ما له علاقة بالحياة الإقتصادية يلعب دوراً هاماً في تكوين أية أيدولوجية، وأن علم الإقتصاد كان وما زال يلعب دورين هامين في آن واحد، فهو أولاً أحد الوسائل التي تستخدمها الأيدولوجية

السائدة لتنفيذ أغراضها، وهو ثانياً طريق للإستقصاء العلمي، وترى روبنسون أن نظرية المنفعة الحدية تعتبر مثلاً حياً على دور النظرية الإقتصادية كأداة أيديولوجية، فهذه النظرية قد إتخذت كأيديولوجية للقضاء على الأيديولوجيات وتبدو وكأنها قد حلت المشكلة الأخلاقية ولكنها غارقة في أيديولوجية (دعه يعمل).

أما ماكس فيبر فهو من جهة يقر بعلمية علم الإقتصاد ولكنه يدعو إلى تخلصه من الأيديولوجيا مع إعترافه بصعوبة ذلك، كما لا يشك كارل ماركس في أن الفيزيوقراطيين والكلاسيك قد قدموا علماً ولكنه تحول إلى أيديولوجية رأسمالية، فهو يرى أن الإقتصاد كان علماً في القرن الثامن عشر وتحول إلى أيديولوجيا في القرن التاسع عشر (١).

---

(١) أنظر: السديس، مصدر سابق، ص ٥٤ - ٥٥.

٢- الإِتجاه الثانی: وهو الإِتجاه الذی یجزم بوجود الأیدولوجیا فی النظرية الإقتصادية ویرى إستحالة التلخص منها، ومن أقدم وأشهر المساهمات فی هذا الإِتجاه آراء الإقتصادي السويدي المعروف جونر ميردال (١٨٩٨ - ١٩٨٧م)، فهو یسخر من الجهود الرامية إلى تخلص علم الإقتصاد من الأحكام القیمية ویستنکر أي نظرة تحليلية، إذا وجد أنها مرتبطة بنظرة سیاسیة أو فلسفية مسبقة، وميردال حین یؤكد علی عدم إمكانية تجنب العناصر الأیدولوجية المعيارية والسیاسية فإنه یرى أن علاجها یكمن فی جعلها صریحة جداً، وأن الزعم بوجود علم متحرر من الأیدولوجیا أو القیم یعنی إخفاء القیم، وأن إنكار وانتقاص قدر الأحكام القیمية یعنی ضیاعها، وهو یرى أن الإِتجاه یتزايد فی

كبت وإخفاء وليس إلغاء الأيديولوجيا في النظرية  
الاقتصادية<sup>(١)</sup>.

٣- **الإتجاه الثالث:** هو الإتجاه الذي يقول بأن النظرية  
الإقتصادية هي أيديولوجيا وأنها تقدم وظيفة  
أيديولوجية وليست علماً ويجب الإعتراف بذلك،  
ومن كُتّاب هذا الإتجاه فرنسيس جرين الذي يعتبر  
أن الموضوعية حتى في علم الإقتصاد الإيجابي ما هي  
إلاً وهم، ويستشهد جرين بوجود مدارس الفكر  
الإقتصادي والفروع والقيادات داخل هذه المدارس،  
وهي تيارات أيديولوجية سياسية مثل مدرسة  
شيكاغو وكيمبردج وغيرها، وأن مشايعة إقتصادي  
ما إلى مدرسة أو تيار فكري معين لأسباب

---

(١) أنظر: السديس، مصدر سابق، ص ٥٦.

أيدولوجية يضع دعوى العلم الموضوعي موضع  
تساؤل.

ويرى أصحاب هذا الإتجاه أنه حتى إفتراض الرشد  
الإقتصادي يعزى إلى أسباب أيدولوجية بسبب النتيجة  
النظرية التي تقرن الرشد بالكفاءة في السوق الإقتصادي  
الحرّة، ومن الأمثلة على ذلك إفتراض التوقعات الرشيدة  
المعروفة، وهو الإفتراض الذي يقول بأن الناس في المتوسط  
يتنبأون بشكل دقيق عن المستقبل، وقد إستخدم هذا  
الإفتراض لتطوير نموذج يستنتج أن تدخل الحكومة في  
الإقتصاد يؤدي فقط إلى التضخم، وهذا إستنتاج قوي يدفع  
لإنتهاج سياسة إقتصادية أيدولوجية واضحة (أيدولوجية  
دعه يعمل)، ورغم الأدلة القوية التي تشكك في صلاحية  
هذا الإفتراض فقد إستمر البعض بالدفاع عنها، ولا يمكن  
تبرئة العوامل الأيدولوجية عن موقف كهذا.



أما روبرت هيلبرونر فهو ينبغي بشكل جازم خلو الإقتصاد من الأيديولوجيا، ويتسأل هل الإقتصاد خال من الأيديولوجيا؟ لا، وأنه من الأفضل أن يعترف ويسلم الإقتصاديون بذلك، كما أنه يرى أن النظرية الإقتصادية النيوكلاسيكية هي أداة أيديولوجية للنظام الرأسمالي، كما أنه ينظر إلى التحيز الأيديولوجي في النظرية الإقتصادية على أنه عميق الجذور، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الإعلام والتعليم موجه أيديولوجياً لتكريس هذا التحيز، وللتدليل على التحيز الأيديولوجي لنخبة الإقتصاديين في تعليمهم وتأليفهم في المجال الإقتصادي يسوق هيلبرونر بعض الأمثلة<sup>(١)</sup>:

**المثال الأول:** تجنب ذكر كلمة (الكساد) في مقرر

دراسي إقتصادي كتبه أحد أشهر الإقتصاديين الأمريكيين

---

(١) أنظر: السديس، مصدر سابق، ص ٥٩ - ٦٤.

سنه (١٩٣٦م)، فقد خلا الكتاب [يقصد كتاب كينز] تماماً من هذه الكلمة رغم أن الكساد كان حديث جميع الأوساط خارج قاعات الدراسة، والإشارة الوحيدة في الكتاب المتعلقة بهذا الموضوع هي ذكره أنه في عام (١٩٢٩م) كان الناتج القومي الأمريكي (٨٠ مليار دولار، وفي عام (١٩٣٢م) أصبح (٤٠ مليار) دولار دون ذكر الأسباب والأهمية والعلاج.

**المثال الثاني:** هو تجنب كلمة (الرأسمالية) من قبل أتباعها وأنصارها والمدافعين عنها، ويستعاض عنها بتعبيرات أخرى مثل نموذج، نظام... إلخ، ويتحدى من يعثر على هذه الكلمة في إصدارات الإقتصاديين الأمريكيين لمدة عشرين عاماً مضت، مع أن كلمة الرأسمالية تعبير يحدد أوصاف نظام إقتصادي إجتماعي يسود معظم دول العالم، وليس مدحاً أو ذمماً ولكنها تعبر عن خصائص هذا النظام، ولكن

الإقتصاديين أو التيار النخبة في الإقتصاد الأمريكي لا يشعرون بالراحة بإستخدام هذه الكلمة [رأسمالية].

### المثال الثالث: أحد أقطاب التنظير الإقتصادي في

الوقت الحاضر والحائز على جائزة نوبل، ومن أكثر الإقتصاديين شجاعة في ذكر كلمة (رأسمالية) في مؤلفاته وهو ميلتون فريدمان، الذي يروج إلى عدم المساواة جزء من الحياة لأن الناس يولدون غير متساوين في المواهب والمظاهر والقدرات، وبهذا يكون التفاوت في توزيع الدخل مبرراً لأنه الأمر الطبيعي، ومن منطلق أخلاقي من وجهة نظر فريدمان يجب عدم التدخل لتصحيح هذا التفاوت، ويرى هيلبرونر أن هناك فرقاً بين توزيع الدخل وتوزيع المواهب، فتوزيع المواهب خارج عن قدرة البشر وتوزيع الدخل ليس كذلك، وكون فريدمان لا يرى هذا الفرق ليس نقصاً في ذكائه ولكنه لا يرى هذا الفرق لأنه متحيز أيديولوجياً.

فمن وجهة نظر هيلبرونر أن أسباب هذا التحيز من قبل الإقتصاديين ليس المصالح الشخصية كما قد يذهب البعض، وكما يحدث من بعض الإقتصاديين في ستر وحجب معتقداتهم عن نظر الجمهور، ولكن الإقتصاديين يتحيزون أيديولوجياً لسبب آخر، هو أن إستخدام الأيديولوجيا سببه علاقتها (الأيديولوجيا) الوثيقة بالعلم أو نظام التفسير والشرح.

أما سمير أمين فهو يرى أن ما يسمى بالإقتصاد الخالص شعوذة جديدة، أن الإقتصاد الخالص ليس في صلب العلم، وهو بعيد عن العلم الإجتماعي بعد إنتقال الأفكار من علم النفس، وهو علم على غرار جميع العلوم الثانوية يمكن أن يثبت كل شيء وعكسه، قل لي ما تحب وأنا أصنع لك النموذج الذي يبرره، إن قوة هذا (الشبه علم) هي أنه يوفر ستاراً يمكن لأي سلطة أن تخفي وراءه أهدافها الحقيقية،

وسمير أمين يرى في هذا صورة كلاسيكية لجميع الشموليات في إصفاء الصفة العلمية على الأيديولوجية، فالإقتصاد الذي يسمى خالص يسمح بالباس التحررية المطلقة (السوق الحر) رداءً أكاديمياً، ويرى سمير أمين أن الإغراق في إستخدام الرياضيات في الإقتصاد ليس بريئاً من غرض إلباس التحيز الأيديولوجي صفة الحيدة العلمية<sup>(١)</sup>.

---

(١) أنظر: السديس، مصدر سابق، ص ٦٧.

## الخاتمة

إن عدم وضوح المفاهيم خطر كبير على إستقامة الفكر،  
وإن وضوح المفاهيم المستعملة لا يوصل بالضرورة إلى إدراك  
الواقع، لكن على الأقل تخلص الباحث من التساؤلات  
الزائفة، وما أكثر التساؤلات الزائفة في ميدان نقد الذهنيات  
كما قال العروي مرة.

وليس غريباً أن نجد عدم الإتفاق بين المدارس والمذاهب  
الإقتصادية حول مفهوم الأيديولوجيا الإقتصادية؛ لكون أن

هذا المفهوم في الأصل هو مفهوم غير بريء، يحمل في طياته إختيارات فكرية يجب الوعي بها لكي لا يتناقض صريح الكلام مع مدلوله الضمني، ومما يعمق هذا الخلاف هو أن المرء يسهل عليه رصد وإكتشاف الأيديولوجيا في عمل الآخرين أكثر مما يراه في تحليله هو.

من أجل ذلك جاء هذا الكتاب كمحاولة لكشف الغموض الذي يحيط بعلاقة الأيديولوجيا بعلم الإقتصاد، ولأن مفهوم الأيديولوجيا يتميز بالإتساع وتعدد المدلولات والتداخل الكبير مع العلوم بشكل عام، فقد جاء هذا الكتاب على شكل عرض لأهم المساهمات والإتجاهات المتعلقة بهذه المسألة.

## المراجع

أولاً: باللغة العربية

### ١- الكتب

- انجلز، ١٩٨٣م: من انجلس إلى فرانتس مهربنغ، بدون مكان النشر.
- ريكور، بول، ٢٠٠٢م: محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة- بيروت.



- سبيلا والعالى، محمد وعبد السلام بنعبد، ٢٠٠٦م:  
الإيدىولوجىا، دار توبقال للنشر- دار البىضاء-  
المغرب.
- السدىس، د. عبد العزىز بن على، ١٩٩٨م:  
التحىز الأىدىولوجى فى الفكر والتحللىل  
الإقصىاى الغربى، جامعة الملك سعود- الرىاض.
- شومىىتر، جوزىف أ.، ٢٠٠٥م: تارىخ التحللىل  
الإقصىاى، ترجمة: حسن عبداالله بدر، ١م، المجلس  
الأعلى للثقافة- القاورة.
- العالى، عبد السلام بنعبد، بدون تارىخ النشر:  
المىتافىزىقا، العلم والأىدىولوجىا، دار الطلىعة  
للطباعة والنشر- بىروت.
- العروى، عبداالله، ١٩٩٣م: مفهوما الأىدىولوجىا،  
ط٥، المركز الثقافى العربى- بىروت.

- علي، حسين، ٢٠١١م: العلم والأيدولوجيا بين الإطلاق والنسبية، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت.
- فاديه، ميشيل، ٢٠٠٦م: الأيدولوجية (وثائق من الأصول الفلسفية)، ترجمة: د. أمينة رشيد وسيد البحراوي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت.
- فنلي، م. إ.، ٢٠١١م: إقتصاد العالم القديم، ترجمة: د. عبد اللطيف الحارس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)- الإمارات العربية المتحدة.
- فينلي، م. آي.، ٢٠١٤م: عالم أوديسيوس، ترجمة وتقديم: مُحمَّد عبودي إبراهيم والسيد جاد، المركز القومي للترجمة- القاهرة.

- فوكو، ميشال، ١٩٨٧م: **حفريات المعرفة**، ترجمة: سالم يفوت، ط٢، المركز الثقافي العربي - بيروت.
- فوكو، ميشيل، ١٩٨٤م: **نظام الخطاب**، ترجمة: د. مُجَّد سيّلا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.
- كبه، إبراهيم، ١٩٧٠م: **دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الإقتصادي**، مطبعة الإرشاد - بغداد.
- لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين، بدون تاريخ النشر: **الموسوعة الفلسفية**، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت.
- لانكه، أورسكار، بدون تاريخ النشر: **الإقتصاد السياسي (القضايا العامة)**، تعريب وتقديم: الدكتور

مُحَمَّد سلمان حسن، ج ١، منشورات دار الطليعة -  
بيروت.

● مانهائم، كارل، ١٩٨٠م: الأيديولوجيا والبيوتوبيا  
(مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)، ترجمة: الدكتور  
مُحَمَّد رجا عبد الرحمن الديريني، شركة المكتبات  
الكويتية - الكويت.

● ماركس وأنجلز، بدون تاريخ النشر: الإيديولوجية  
الألمانية، ترجمة: الدكتور فؤاد أيوب، دار دمشق -  
بيروت.

● ماركوز، هيرت، ١٩٨٨م: الإنسان ذو البعد  
الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي، ط ٣، منشورات  
دار الآداب - بيروت.

● مبروك، د. أمل، بدون تاريخ النشر: الأسطورة والإيديولوجيا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت.

● هيود، أندرو، ٢٠١٢م: مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية، ترجمة: محمد صفار، المركز القومي للترجمة- القاهرة.

## ٢- المجالات العلمية

● التوسير، لويس، ١٩٧٠م: الأيديولوجية والأجهزة الأيديولوجية للدولة، ترجمة: عايدة لطفي، ج٢، مجلة الفكر الفرنسية- العدد ١٥١.

ثانياً: باللغة الانكليزية

## 1- Books

- Marshall, Alfred, 1890: **Principles of Economics**, Publisher: Macmillan and Co., New York.
- Say, Jean Baptiste, 1971 (1821): **A Treatise on Political Economy (or The Production, Distribution and Consumption of Wealth)**, Augustus M. Kelley. Publishers, New York.

## المحتويات

١	تمهيد .....
٤	الإقتصاد والأيدولوجيا إصطلاحاً .....
٧٢	الأيدولوجيا الإقتصادية .....
٩٩	الخاتمة .....
١٠١	المراجع .....
١٠٨	المحتويات .....

يستقبل المؤلف آراء واستفسارات القراء الكرام  
على البريد الالكتروني:

**Duhokbawer1980@gmail.com**